اقرأ

طه حسين

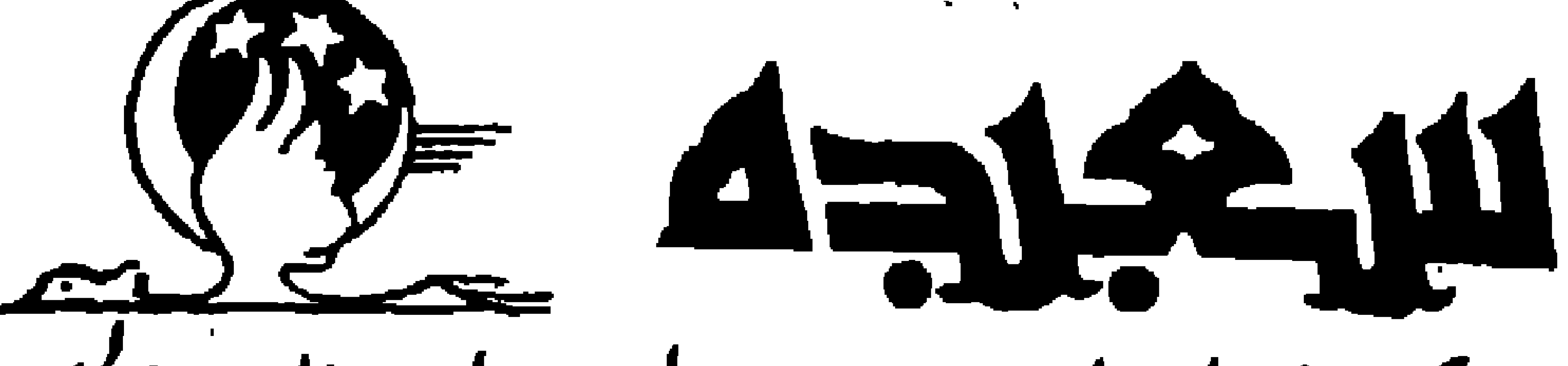
الحُبُّ الضَّائِع

دار المعارف



أثينا	أيام الاثنين والجمعة	٢١ جنيها
روما	أيام الاثنين والأربعاء والجمعة	٤١ جنيها
ميلان	أيام الاربعاء	٤٧ جنيها
ميونخ	أيام الاربعاء	٥٤,٦٠٠ جنيها
فرانكفورت	أيام الاربعاء	٦١,٠٠٠ جنيها
بنغازى	أيام الخميس	١٨,٥٠٠ جنيها
طرابلس	أيام الخميس	٣٠,٥٠٠ جنيها
تونس	أيام الخميس	٣٨,٥٠٠ جنيها

تخفيض ٢٠٪ على تذاكر الذهاب والإياب



الخطوط المصرية للطيران الدولى

٣٧ عبد الخالق ثروت باشا بالقاهرة - تليفون ٩٢٤٤٦

SPMO

الحُبُّ الضَّائِع

طه حسين

الحُبُّ الضائع

اقرأ ١٠٥

دار المعارف للطباعة والنشر بمصر

اقرأ ١٠٥ — أكتوبر سنة ١٩٥١



١

ما أكثر ما أعجب من نفسي ، وما أسرع ما يستحيل هذا العجب إلى سخرية منها أول الأمر ، ثم إلى رثاء لها وعطف عليها ؛ لا يعرض لى شيء غريب أو مألوف إلا حاولت أن أتبين أصله وأردّه إلى علته ، وقد أبلغ من ذلك ما أريد فأرضى ، وهذا نادر ؛ وقد أعجز عن التعليل والتأويل فأسخط ، وهذا كثير ؛ وأنا على كل حال ساخرة من نفسي لهذا المرض الذى لا أجد منه برءاً ، مرض التماس العلة والانتهاء إلى المصادر والأسباب .

والناس يقولون ، إننا ، نحن الفرنسيين ، أمة مريضة بالتعليل والتحليل ، وإن فيلسوفنا ديكارت قد أفسد علينا عقولنا لكثرة ما ألحّ علينا فى أن نحلل ونعلل ، ولشدة ما فتنا بتحليله وتعليله حتى أصبحنا جميعاً فلاسفة أو كالفلاسفة ، وحتى اتخذ العالم منا والجاهل ، والمثقف منا والساذج ، طور الفيلسوف الذى لا يرضى ولا يطمئن إلا إذا ردّ كل شيء إلى أصله ووجد له تفسيراً أو تأويلا .

وأكبر الظن أن هذا حق ؛ فإننا نحن الفرنسيين حين تعرض لنا المشكلات أو تلمّ بنا الأحداث لا نعنى بحل المشكلات ولا بالتخلص من الأحداث ، وإنما نعنى قبل كل شيء بتفسيرها وتأويلها ، فإذا وصلنا من ذلك إلى ما نريد رضينا واطمأنت قلوبنا وأذعنا للقضاء ، وقد يشغلنا هذا عن التماس المخرج مما يلمّ بنا من الخطوب أو يعرض لنا من الأزمات .

أنا إذن فرنسية من هؤلاء الفرنسيين ، لم أبرأ من هذا المرض الفرنسي العام ، مرض التأويل والتعليل ، وأنا جادة الآن فى البحث عن أصل هذا الخاطر الغريب الذى أجلسنى إلى هذه المائدة ومد يدى إلى هذا القلم ، ثم أخذ يجريها على القرطاس بهذا الكلام الذى أكتبه .

ذلك أنى لم أكتب قط إلا ما تعوّد أمثالى أن يكتبن من هذه الكتب اليسيرة القصيرة ، التى تتصل بين الصديقات حين يفترقن ويحرصن على أن تتصل بينهن المودة وتتصل بينهن المجاملة بنوع أخص هذه الثرثرة التى لا يستطعن أن يخلصن منها أو يعرضن عنها .

لم أكتب قط إلا هذه الكتب القصار إلى الصديقات حيناً ،

وإلى أبوىّ وإخوتى حين كنت بعيدة عن الأسرة ، رهينة لذلك السجن الذى اضطررت إليه ثمانية أعوام والذى نسميه المدرسة ؛ وأنا الآن جالسة إلى هذه المائدة ، مجرية قلمى على هذا القرطاس ، لا لأكتب كتاباً إلى صديقة ، ولا لأكتب كتاباً إلى أحد من أسرتى ، فإنى لا أفكر فى أحد غير نفسى ، ولا أحب أن يقرأ أحد شيئاً مما أكتبه الآن ومما سأكتبه فيما سيتصل من أيام ، فإنى لم أجلس للكتابة إلا وأنا مقدرة أنها ستتصل ، وأنا أبحث عن هذا الخاطر الغريب الذى دفعنى إلى هذا النحو من التفكير والكتابة فلا أكاد أهتدى إليه .

أنا أذكر أن ثلاثاً من أترابى قد زرننى منذ أيام فخضنا فى أحاديث مختلفة ، وذكرت كل واحدة منهن كثيراً من شؤونها الظاهرة والمستورة ، وتحدثت كل واحدة منهن بما تسر بين حين وحين إلى دفترها حين تخلو إلى نفسها وتأوى إلى غرفتها بعد أن يتقدم الليل ، وأذكر أنى سمعت أحاديثهن فعجبت لها وأعجبت بها ، ولم أستطع أن أشارك فيها لأنى لا أسرّ إلى دفترى شيئاً إذا أويت إلى غرفتى بعد أن يتقدم الليل ، بل لأنى لم أتخذ قط لنفسى دفتراً أسرّ إليه أحاديث نفسى وآمنه عليها وأستعين به

على ما قد يضيق به صدرى من الخواطر والهموم ، أو على ما تفيض به نفسى أحياناً من ألوان الغبطة والابتهاج ، بل لم أفكر قط فى شيء كهذا ، وإنما آمنت دائماً بأن سرّ النفس يفقد حرمته وطبيعته إذا تجاوز التفكير إلى طرف اللسان أو إلى طرف القلم ، وأبيتُ دائماً أن أشرك فى أحاديث نفسى أحداً غيرى ، ويجب أن أعترف بأن أحاديث نفسى لم تكن ذات خطر ، وبأنها لم تبلغ قط من القوة أن تشعرنى بالحاجة إلى من يشاركنى فيها أو يعيننى عليها ، ولكنى سمعت أحاديث الصديقات ، ولا أدرى لماذا أعجبتنى أنباء هذه الدفاتر التى تؤتمن على الأسرار وتتلقى الأحاديث حين تأوى كل واحدة منهن إلى غرفتها بعد أن يتقدم الليل .

وقد تفرّق عنى صديقاتى وشغلت عنهن وعن أحاديثهن بما يكون من حياة الأسرة ، حتى إذا تقدّم الليل وأويت إلى غرفتى وخلوت فيها إلى نفسى لم أجد ميلا إلى النوم ، وإنما أطلت الاضطراب فى الغرفة والتشاغل بالترتيب والتنسيق كأنى كنت أريد أن أمدّ الأسباب التى تصل بينى وبين النوم ، وأن أطيل السهر وأحتفظ باليقظة ، فلما لم يبق ترتيب ولا تنسيق ولم تنازعنى نفسى إلى النوم ، أردت أن أتشاغل بالقراءة وأستعين بها على ما

أريد من سهر ، فآخذ هذا الكتاب ،ولكنى لا أكاد أنظر فيه حتى أصرف عنه ،فآخذ كتاباً آخر فلا يكون حظه خيراً من الكتاب الأول ، فألبث جامدة شاردة النفس حيناً ، ثم تثوب إلى نفسى ، وإذا أنا راغبة عن النوم زاهدة فى القراءة ، منصرفة عن الحركة فى التنسيق والترتيب .

وماذا أنسق وماذا أرتب وقد بلغت من ذلك ما أريد وأكثر مما أريد ، حين أويت إلى هذه الغرفة منذ ساعة ؟ وهنا أشعر بالحاجة إلى أن أكتب ، ولكن ماذا أكتب ؟ ولمن أكتب؟

هنا يعاودنى ذلك الخاطر الذى عرض لى حين كنت أستمع إلى حديث الصديقات ، فأذكر ائتمان الدفاتر على الأسرار والتحدث إليها بنجوى الضمير ، ثم أذكر أنى لا أملك دفتراً آتمنه على أسرارى وأفضى إليه بأحاديث نفسى ؛ وليس من شك فى أنى قادرة على أن أمد يدى فآخذ ما أشاء من الورق وألقى إليه بما أحب من حديث ، ولكنى أنفر من ذلك نفوراً شديداً ، فلا بدّ من أن أختار الدفتر الذى أتحدث إليه ، كما أختار الصديق التى أوثرها بالمودة والإخاء ، ولا بدّ من أن تكون هنالك ملاءمة بين نفسى وبين هذا الدفتر . وإذا أنا أفكر فى شكل هذا الدفتر ،

وما ينبغي أن يكون عليه من الجودة والظرف ، ومن الشكل الأنيق المعجب ، ثم يجب أن يكون خليقاً بكتمان السر والضن به على الذين قد يتلطفون أو يتطلعون إلى القراءة واستباحة ما اؤتمن عليه.

وإذن فلن أكتب الليلة ولن أفضى بسرى إلى دفتر من هذه الدفاتر العادية أو ورقة من هذه الأوراق المنثورة ، ولا بدّ من أن أنتظر إلى غد ، حتى إذا اخترت الدفتر وأحسنت اختياره خلوت إليه خلوة الصديق إلى الصديق الذى يلائمه ويشاركه ، فتحدثت إليه أحاديث فيها الثقة والأمن ، وفيها اللذة والمتاع ، وفيها قبل كل شىء ارتفاعُ الكلفة وزوال الحرَج .

ولو أنى أخذت دفتراً من تلك الدفاتر العادية أو ورقة من تلك الأوراق المنثورة ، ثم حاولت أن ألقى إليها سراً أو أفضى إليها بحديث لما وجدت فى نفسى شيئاً ؛ فقد كنت أمس خالية النفس من كل سر وكل حديث ، لا يشغلنى التفكير فى أن يكون لى دفتر كغيرى من صديقاتى ، وفى أن ألقى إلى هذا الدفتر أسراراً كالتى يلقينها ، وأفضى إليه بأحاديث كالتى يفضين بها ؛ وليس أدلّ على ذلك من أنى قد أصبحت فغدوت على دار من تلك الدور التى تهيئ للناس أنفس ما يحتاجون إليه من أدوات

الكتابة والتحرير ، فلم أتخير دفتراً فحسب ، ولكنى تخيرت معه قلماً رشيقاً جميلا غالى الثمن أيضاً ، ثم أخفيت ذلك فى غرفتى ، ثم جعلت أفكر فى ذلك اليومَ كله ، ثم جعلت كلما ألممت بغرفتى نظرت إلى القلم ومسست الدفتر بيدى مساً رفيقاً ، كأنما أريد أن ألاطفه وأبارك عليه ، ثم انقضى النهار وتقدّم الليل ، وجعلت آخذ نفسى بشىء من العنف حتى لا أتعجل الخلوة إلى نفسى والإيواء إلى غرفتى .

ثم هأنا هذه قد أويت إلى غرفتى ، وخلوت إلى نفسى ، وأخذت الدفتر الجميل فبسطته أمامى ، وجعلت أنظر فى صحفه النقية فأطيل النظر ، كأنما أريد أن أستنبئ نقاءها وصفاءها عما يمكن أن يكون لهما من سر أو حديث ؛ وأىّ عجب فى ذلك ؟ فقد اتخذت هذا الدفتر صديقاً أميناً ، ولا بدّ بين الصديقين من تبادل الود والحديث والثقة والأسرار ، ولكن هذه الصحف النقية الصافية لم تنبئنى ولم تلق إلى نفسى شيئاً .

وإذا أنا آخذ القلم عازمة حازمة كأنما أريد أن أحطم ما بيننا من الثلج كما نقول فى أحاديثنا اليومية ، وأن أبدأ بالحديث تشجيعاً لهذه الصحف على أن تتحدث ؛ ولكنى لا أجد شيئاً

أقوله ولا حديثاً أكتبه ، وأكبر الظن أن نقاء هذه الصحف الخالية من كل سر لا يعدله إلا نقاء هذه النفس التى تريد أن تتحدث إليها والتى لا تجد ما تتحدث به فهى تتكلف وتتصنع وتخلق الحديث خلقاً .

وإنى لأفكر فى هذا فأذكر مواقف وقفتها فى عهد الطفولة ، وما زلت أقفها إلى الآن وقد كدت أبلغ العشرين من العمر ، وهى مواقفى من القسيس ؛ فما أكثر ما أضعت وقته وأضعت وقتى بما كنت أحاول من الاعتراف ! فقد كنت أرى ذلك فرضاً على وأرى أن نفسى لن تستريح ، وأن ضميرى لن يطمئن ، إلا إذا قمت من القسيس مقام المعترفة بالخطيئة ، ثم مقام النادمة على الخطيئة ، ثم انصرفت عنه وقد ظفرت منه بالمغفرة ؛ ثم أبحث فى سيرتى فلا أنكر شيئاً ، وأبحث فى دخيلة نفسى فلا أنكر شيئاً ، وألتمس مع ذلك شيئاً أنكره لأعترف به أمام القسيس فلا أجد ما أنكر ، فأخترع الخطايا اختراعاً وألقيها إلى القسيس متكلفة غالية فى التكلف ؛ فيقبل القسيس منى حيناً ويرفض حيناً آخر ، حتى انتهى به الأمر ذات يوم إلى أن كلفنى أن أعترف له بكل ما أثقلت به نفسى من هذه الأكاذيب والأباطيل ، ونبهنى إلى أن



الكذب عليه كذب على الله ، وإلى أن هذه الخطيئة الساذجة فى ظاهر الأمر قد تستحيل إلى خطيئة مهلكة ، لأنها تعودنى الكذب وتغرينى بالتكلف ، وتدفعنى إلى النفاق ، وتنشىء بينى وبين الآثام صلات قد تنتهى بى إلى الشر .

فأقلعت منذ ذلك اليوم عن انتحال الخطايا وتكلف الآثام للقسيس ، ولكننى ألاحظ الآن أنى قد جلست إلى هذا الدفتر لأنتحل الأحاديث وأتكلف الأسرار ، وما فى نفسى من حديث وما لضميرى من سر ؛ وما أدرى أيهما خير ؟ أن تظل نفسى نقية كهذه الصحف النقية ، وأن أخلو إلى هذا الدفتر ساعة فى كل يوم فأنظر فى صحفه النقية الصافية لأرى فيها نفسى نقية صافية ، أم أن تزدحم نفسى بالأحاديث والأسرار فلا أخلو إلى هذه الصحف إلا ألقيت عليها من سواد نفسى ما يمحو صفاءها ، ويزيل نقاءها ، ويجعلها مرآة مظلمة لنفس مظلمة ؟

أما قبل أن أسمع حديث صديقاتى عن الدفاتر والأسرار فقد كنت أوثر الأولى ، وأما منذ سمعت أحاديثهن وكلفت بمثل ما كلفن به فإنى لا أدرى أىّ الأمرين أحبّ إلىّ ؟ بل أنا أدرى أيهما أحبّ إلىّ ! فهذه صحف من هذا الدفتر كانت نقية

منذ حين ، قد جرى عليها هذا القلم فصيّرها إلى هذا السواد الذى لا يغنى ، وجعلها مرآة سوداء لنفس يشوبها الاضطراب ، ويشيع فيها القلق ، فيخرجها عما ألفتْ من صفاء ونقاء .

٢

ويحك أيها الدفتر العزيز ! ويحى منك ! لقد شغلتنى يومى كله ، فلم أكد أفكر إلا فيك منذ أصبحتُ إلى أن أمسيت. ولقد كانت تشغلنى عنك الحوادث الطارئة والأحاديث العارضة، بينى وبين أسرتى أو بينى وبين بعض أترابى ، ولكن لم أكن ألبث أن أعود إليك ، فأذكرك ثم أراك ، ثم أتمثلك مبسوطاً بين يدى ، ثم أسأل نفسى عما يمكن أن ألقى إليك من سر ، أو أفضى به إليك من حديث .

وما أكثر ما خطر لى من الخواطر ، وما أكثر ما عرض لى من المعانى ، وما أكثر ما ثار فى قلبى من العواطف ، وما أكثر ما استبان لنفسى من الرأى ! ولكنى ضقتُ بهذا كله آخر الأمر ، ورأيت أنك ستصبح لى شغلا شاغلا وعلة ملحة ، وأشفقت أن تفسد علىّ حياة صالحة جرت إلى الآن على خير ما تجرى عليه حياة أمثالى من الفتيات ، فأزمعت الإعراض عنك والتنكر لك والاشتغال بما كنت أشتغل به قبل أن أعرفك من عمل ورياضة فى النهار ، ومن حديث وقراءة فى الليل . ثم أخذت فى بعض ما

كنت آخذ فيه ، ولكنى رُددت إليك ردا ، وأكرهت على التفكير فيك ثم التحدث إليك إكراهاً ؛ وهأنا هذه أجلس إليك بعد أن هدأ كلّ شىء ، وثاب كلّ فرد من أفراد الأسرة إلى غرفته فخلت الدار منا ، ونحن مع ذلك نملؤها ونعمرُها ، ونشيع فيها حياة تسكن الآن لتنشط إذا أسفر الصبح .

هأنا هذه أجلس إليك بعد أن هدأ كل شىء ، ولعلى تعجلت هذا الهدوء فيما ظهر من أمرى ، وما أشك فى أنى تعجلته فيما كنت أخفى من حديث النفس ونجوى الضمير ؛ وأنا كما كنت أحدثك أمس ألتمس تعليل هذا وتأويله ، فيروعنى ما ينتهى إليه بحثى من التعليل والتأويل ، فقد يخيل إلىّ أن قلبى فارغٌ يريد أن يمتلىء ، وأن نفسى ساكنة كسلةٌ تريد أن تنشط وتعمل ، وأن ملكاتى كلها معطلة يؤذيها هذا التعطيل فهى تلتمس لنفسها منه مخرجاً ولا تجده إلا فى معرفة جديدة لصديق جديد .

وأنا أعلم أن أبواب النشاط أمامى مفتحة ، لو شئت ، فأنا أستطيع أن أشارك فى أعمال البيت ، وأنا أستطيع أن أشارك فى الرياضة ، وأنا أستطيع أن أقرأ وأن أزور وأستزير ، وآخذ فى ألوان مختلفة من الحديث ، ولكنى منصرفة عن هذا كله ،

وانصرافى عنه يشتدّ من حين إلى حين ، وأنا أحسّ شوقاً إلى شيء جديد ألمحه ، ولا أتبينه ، تحسه أعماقُ نفسى وضمير قلبى ولكنه لا يستبين لعقلى ولا ينجلى لرأيى ، فأنا حائرة دون أن أعرف مصدر هذه الحيرة ، هائمة دون أن أعرف موضوع هذا الهيام ، مشوقة دون أن أتبين غاية هذا الشوق ، وأنت تسليني عن هذا كله ، وتقوم فى نفسى وقلبى مقامَ هذا كله ، فأنا أظهر لك نفسى كما هى ، وقلبى كما هو ، ولعلى أتبسط إلى أبعد من هذا فأجلس إليك فى لبسة المتفضّل ، لا متحرجة ولا متأنقة ، ولا متكلفة شيئاً يتصل بالزى أو بترتيب الهندام ، إنما هى الحرية المطلقة ، حرية النفس وحرية الجسم ، أصطنعها متى أغلقت الباب من ورائى وجلست إليك؛ وأنا أجد فى هذا راحة وطمأنينة ، ولكنى أجد فى هذا شيئاً يسيراً خفياً من قلق يتردّد فى ضميرى بين حين وحين . فماذا تقول أمى ؟ وماذا يقول أبى ؟ وفيم يفكران لو أنهما قرآ هذه الأحاديث التى أسرها إليك ؟ هذه مشكلة جديدة لا بدّ من أن أجتهد فى حلها؛ فلم يكن لى على أبوىّ سرّ ، أو كنت أحتفظ بسرى وبما يخطر لى من السخف فى هذا الضمير الذى لا يظهر عليه الآباء والأمهات ،

ولكنى الآن أجهر بهذه السخافات وألقيها إليك ،وأنت تستطيع أن تضمن لها البقاء ما تركت آمناً محفوظاً من العاديات،ولكنك لا تستطيع أن تؤمن نفسك من أن تمتد إليك الأيدى وتجرى على صفحاتك العيون . أنت حافظ للسر ولكنك لا تستطيع له كتماناً ؛فلا بدّ من أن أعينك على هذا الكتمان ، ولا بدّ من أن أخفيك وأبالغ فى إخفائك على الناس جميعاً ، وعلى أبوىّ بنوع خاص ، وعلى أخى هذا العفريت المارد بنوع أخص؛ وما كان أغنانى عن هذا الجهد الجديد ، ولكن لا بد مما ليس منه بد !

٣

ولكنى أبثك هذه الأحاديث وأنت لا تعرف من أمرى شيئاً؛ ألست ترى أن هذا غريب ؟ إنى لا أفضى بأيسر أمرى إلى أحد حتى أعرفه وحتى يعرفنى ، فكيف بى أظهر لك نفسى كما هى ولم أعرفك إلا أمس ، وأنت لا تعرف من أمرى شيئاً ؟ إنى لغافلة ذاهلة حين أتصور فيك العقل والشعور والمعرفة ، وحين أتحدث إليك كما أتحدث إلى الناس ، ولكنى مضطرة إلى ذلك مكرهة عليه ، لا أستطيع أن أرى فيك إلاّ صديقاً يسمع لى ويفهم عنى ، لأنى فى حاجة إلى هذا الصديق ، وإن كنت لا أدرى مصدر هذه الحاجة ، ولولا ذلك لما اشتريتك ، ولما اتخذتك أميناً على السر وحفيظاً على نجوى الضمير .

ولست أرى بذلك بأساً ، وقد قرأت فى بعض الكتب أن بعض بلاد الشرق كانت تشترى الرقيق من الصبية فتنميهم وتربيهم وتؤدّبهم وتدربهم ، ثم تتخذهم لها قادة وملوكاً ! وما أنا فى حاجة إلى أن أنميك أو أربيك أو أؤدّبك أو أدرّبك لأتخذك لى صديقاً

فأنت تكفينى كما أنت ، وأنت بعد هذا كله تُعيننى على أن أنمى نفسى وأربيها ، وعلى أن أؤدب نفسى وأدربها ، وعلى أن أعرف نفسى حين أعرّفها لك وأقدمها إليك ؛ فأنت صديقى وأنت نجيى ، ولا بد للصديق من أن يعرف صديقه ، ولا بدّ للنجى من أن يعرف نجيه ؛ فاعرفنى إذاً ، وإنى مقدمةٌ إليك نفسى كما عرفتها ، بل كما جهلتها ، لأنى سأظهرك عليها باحثة عنها ، ملتمسة تعليل كثير مما صدر عنها من عمل وتفكير لم أفهمه حين صدر عنها ، ولكنى أظن أنى سأفهمه الآن بعد التفكير والرويّة .

اعرفنى إذاً لأنى سأقص نفسى عليك ، ولأنك ستصاحبنى منذ اليوم وستتلقى أسرارى ، وستحاسبنى أو ستعيننى على أن أحاسب نفسى عن كل ما أعمل ، وعن كل ما أجد .

أليس من الغريب أنك لا تعرف اسمى إلى الآن ؟ فليكن هذا أوّل ما تعرف من أمرى ، فأنا فتاة سأبلغ العشرين بعد أيام ، تُسميها أسرتها : لين ، ويسميها الناس : مدلين مورل .

وما أنا متحدثة إليك بتاريخى البعيد ، فقد استعرضتُ ما أذكره منه فى أثناء النهار فلم أجد فيه غناء ، وأشفقتُ أن أقصه

عليك فتسخر منى وتضيق بى ، لأنه تاريخ الألوف من الفتيات الفرنسيات اللاتى ينشأن فى الطبقات الوسطى من أهل الريف الفرنسى ؛ ولكن يحسن أن تعلم أن الحرب الكبرى قد أدركتنى حين كدت أتم الرابعة عشرة من عمرى ، وقد كنت تلميذة تتهيأ للشهادة الثانوية ، جادة فى الدرس مشغوفة بالعلم دائبة على التحصيل ، أتمتْ عامها الدراسى وظفرتْ بجوائز كثيرة ممتازة ، وعادت إلى أهلها فى قريتهم هذه فى عطف من أعطاف الجبل فى السفوا ، سعيدة راضية عن عامها ، مستبشرة مغتبطة بما ستنعم به من الراحة والسياحة وألوان الرياضة مع إخوتها الثلاثة ، وأترابها الكثيرات أثناء الصيف .

وكنت أصغر إخوتى سناً ، وكان أكبرنا قد تخرج فى كلية الطب ليعمل مع أبينا فى صناعته، ثم ليخلفه على عيادته بعدعمر طويل ، فكان قد أتم الرابعة والعشرين من عمره ، وكان ثانى إخوتى قد أتم الحادية والعشرين من عمره وظفر بإجازة الليسانس من كلية الحقوق ، وهو يتهيأ للعمل عند بعض الموثقين ولتحصيل إجازة الدكتوراه أثناء ذلك ، فأما الثالث من إخوتى فكان فى السابعة عشرة من عمره قد ظفر بالشهادة الثانوية ، ويريد أن

يذهب إلى باريس ، ليتهيأ فيها لدخول مدرسة المعلمين .

وكانت أسرتنا راضية موفورة ليست بذات ثروة ضخمة ، ولكنها ليست ضيقة اليد ولا سيئة الحال ولا عاجزة عن أن تعيش عيشة فيها كثيرٌ من رغد وخفض ، وآية ذلك أننا كنا نتهيأ فى ذلك الصيف لألوان من العيش لا يتهيأ لها الذين قتر عليهم الرزق فقد كان أخواى يريدان أن يتركا فرنسا ليذهب أحدهما إلى . إيطاليا ، والآخر إلى بلاد اليونان والترك . وكان أصغر إخوتى يريد أن يلحق برفاق له فى جبال الفوج ، وكنت أتهيأ لأذهب مع أبوى وبعض أترابى إلى ساحل المحيط فى بيارتز . ولكن جو أوربا يزدحم بالسحب، ثم تخفق فبه البروق ، وتقصف فيه الرعود ، ثم تثور العاطفة فتحطم كل أمل وتغير كل اتجاه ، ويذهب أخواى لا إلى ايطاليا ولا إلى اليونان، ولكن إلى حيث تريد توجيههما وزارة الحرب . ويذهب أبى متطوعاً للخدمة الطبية فى بعض المستشفيات قريباً من الحدود ، وأبقى مع أمى وأخى فى قريتنا هذه آمنين من غارات الحرب ، غير آمنين أنباءها المنكرة ومناظرها البشعة ، إذا انحدرنا إلى هذه المدينة أو تلك ، فرأينا هذا السيل الذى كان يتدفق بالجرحى على المستشفيات ، وذلك



السيل الذى كان يتدفق بالمحاربين على الحدود . ولكنى مع ذلك لم أذق الحرب ، ولم أبل مرارتها ، ولم أحس لذعها الذى يحرق القلب ويغرق العين ، إلا بعد أن تقدمت الحرب وبلغت من عمرها البشع ستة أشهر ، حين جاءنا النبأ بأن أكبر أخوى قد صرع فى أحد الميادين؛ هنالك عرفت الحرب وأحسست آلامها ، ولكن أسابيع لم تمض على هذا النبأ حتى يلحقه نبأ آخر بأن ثانى أخوى جريح يمرض فى أحد المستشفيات ، ثم لا يتم العام حتى تظهر فى الأسرة ظاهرة من جنون لم ينكرها أبى حين استشير فيها بالكتب والرسائل ، وأنكرتها أمى ولكنها لم تجرأ على أن تظهر إنكارها إلا بالإذعان والبكاء المتصل ، وأنكرتها أنا أشد الإنكار وأعنفه ، ولكن أحداً لم يسمع لى ، وإنما كانت تلقانى الأسرة بالتلطف والتعطف والتسلية ، وهذه الظاهرة هى تطوع أخى الصغير للخدمة العسكرية قبل أن يبلغ سن الحرب . وكان يقول : قد صرع أحد أخوى ، وجرح الآخر ، وما ينبغى أن تخلو ميادين الحرب من أحدنا !

ثم يسافر ذات يوم مع الصبح فنودعه ، ثم لا نراه إلى الآن!

٤

لم تكن ليلتى سعيدة أمس ، وإنما انقضت شاحبة يملؤها الحزن والبؤس والشقاء ؛ فقد انصرفت فجأة عنها أيها الدفتر العزيز وحيل بينى وبين المضى فيما كنت أقص عليك من أنباء نفسى وأحاديث أسرتى .

صرفنى عن ذلك ما أثارته هذه الأحاديث وتلك الأنباء من شجون وأحزان امتلأ بها قلبى وغرق فيها ضميرى والتبست لها الأمور على نفسى ، ثم لم تلبث أن استأثرت بحسى الظاهر فأجرت فى جسمى رعدة خفيفة أول الأمر ، ثم عنيفة بعد ذلك ، لم تهدئها عنى إلا هذه الدموع التى انحدرت من عينى غزاراً . لقد كنت أحسب أن قد هدأت اللوعة وسكت عنى وعن الأسرة هذا الجزع الذى ملكنا وأفسد علينا أمورنا كلها حين انتهى إلينا النبأ بمصرع أخى الصغير ؛ فإذا أنا لا أكاد أبدأ الحديث إليك حتى ينكأ الجرح وتثور العاصفة ، وحتى يضطرب من حولى كل شىء ، وحتى يفسد على كل شىء ، وحتى أغرق فى هذا

الحزن الشامل الذى يصرفنى عنك وعن نفسى ، والذى ينسينى مكانى منك ، ومكانى من كل شىء ، والذى يشغلنى ويشتمل علىّ اشتمالا تاماً ، فأنفق ليلة ما أدرى كيف أنفقتها ، ما أعرف إلى أى لحظة منها بقيت يقظى ، وفى أى لحظة منها أدركنى النعاس ، وإنما أتنبه لنفسى حين يمسنى برد الصباح ، فإذا أنا كما كنت حين بدأت الحديث إليك ، لم أنتقل من مكانى ولم أتحول عن مجلسى ولم أدرِ كيف قضيت الليل .

هنالك أنهض فزعة مرتاعة ، متسائلة ماذا كان يمكن أن يكون لو أن البرد لم يوقظنى ، ولو أنى لبثت على هذه الحال حتى تستيقظ الأسرة وحتى تظهر علىّ فى هذا الوضع الذى كنت فيه ؟ هنالك أعمد إليك فأخفيك ، وأعمد إلى سريرى فأحدث فيه شيئاً من الاضطراب ، ثم آوى إليه كارهة متكلفة ، لتعلم الأسرة أنى قد قضيت ليلة عادية لم أخرج فيها على المألوف . ولكنى تبينت من هذا كله أنى كنت أكذب على نفسى ، أو أن نفسى كانت تكذب علىّ حين كنت أزعم أنى قد أخذت أتسلى عن الحزن وأتعزى عن كوارث الحرب . وما أشك الآن فى أن الأسرة كلها تكذب على نفسها فتتكلف السلو ، وتتصنع العزاء،

وتلقى حجاباً رقيقاً على أحزانها وآلامها، تتخذه من مشاغل الحياة وأعراضها المتصلة لأنها لا تستطيع أن تمضى فى هذا الحزن العنيف جاهرة به مظهرة له؛ لا تستطيع ذلك لأن للحياة ظروفها وبواعثها ودواعيها إلى العمل والجد، ولا تستطيع ذلك لأنها تحسب لمراقبة الناس حساباً أعظم مما تقدر وتظن. وما أشك الآن فى أننا جميعاً نلتقى بوجوه باسمة أو غير مكترثة، ونمضى فى حياتنا بهذه الوجوه التى تبتسم وتظهر التجلد، ولكنه ابتسام لا يدل على شىء إلا على التكلف والتصنع، ولا يصدر عن شىء إلا الحزن المر واليأس الممزق للقلوب، ولكنه تجلد يسير هين لا يكاد يثبت إلا متهالكاً متضائلا، يكفى أن تعرض له الذكرى فإذا هو يتبدد ويزول، كما يتبدد سحاب الصيف! وآية ذلك أنا نتجنب، إذا التقينا وأخذنا فى الحديث، ذكرَ الفقيدين الشهيدين، والإشارة إليهما من قريب أو بعيد، مخافةَ أن يخرج ذلك بنا عن طور التكلف هذا الذى أخذنا به أنفسنا، وأجرينا بيننا عهداً صامتاً على أن نلزمه ونمعن فيه لتستقيم لنا الحياة كما تستطيع أن تستقيم لقوم لا يجدون ينبوعَ الحياة فى قلوبهم، وإنما يستمدون حياتهم من الخارج ويستعيرونها من الحوادث والظروف،

فهم يحيون متكلفين ، ولولا هذا التكلف لما ظفروا من الحياة إلا بأسباب واهية لا تُغني عنهم شيئاً !

وما أشك الآن فى أن أمر أبوىّ شرٌّ من أمرى ، فإن لى من الشباب نشاطه وآماله ما يسليني ، رضيتُ ذلك أم كرهته ، وما يعينني على أن أتجنب الذكرى وأفرّ من الحزن ، فأما أبواى فليس لهما من هذا كله شيء ؛ فقد فقدا نصف آمالهما حين فقدا اثنين من أبنائهما الأربعة ، وبقى لهما نصفها الآخر كئيباً شاحباً لا يثير نشاطاً ، ولا يدعو إلى جدّ ، ولا يكاد يبعث فى النفوس فرحاً ولا ابتهاجاً ؛ وهما يتجنبان الحديث فى كل هذا بمحضر منا ، ولكنهما يضمران غير ما يظهران ، ويتحدّث كل منهما إلى صاحبه بما يُذكى النار فى قلبه ويضاعف الحزن على نفسه ، وكل منهما مع ذلك رفيق بصاحبه شفيق عليه يخفى عليه أكثر مما يظهر له .

لهما الله ! ما أشدّ ما يقاسيان وما أعظم ما يألم كل منهما إذا خلا إلى نفسه واستطاع أن يرفع هذا الحجاب الرقيق المتكلف وأن يلقى وجهاً لوجه هذه الصورة البشعة التى تركتها لنا الحرب والتى رأيتها أمس فأنفقت أشنع ليلة وأشقاها !

٥

ولم يكن النهار خيراً من الليل؛ وكأنما اصطلحت مظاهر الطبيعة وأسباب الحزن على نفوس هذه الأسرة البائسة، فاضطرتها إلى هذا السجن البغيض الذى هو أثقل شىء عليها ، لأنه يخلى بينها وبين حقائق الأشياء ، ويكرهها على أن تخلو إلى نفسها وتعكفَ على آلامها ، وتذعنَ لهذه الخواطر المحزنة المؤلمة التى تضطرب فى نفوس المحزونين والبائسين .

فقد أصبحنا وإن الشمس لتنشرُ على القرية وما حولها من هذه الآكام اليسيرة التى ترتفع وتتدرج فى لين ورفق ودعة، غشاء رقيقاً جداً من الضوء ، يسحر العين ولكنه يثير فى النفس شيئاً من الحزن والأسى لما ينقصه من القوة والثبات والاستقرار ، ويحمل النفس أن تتساءل : أقادرٌ هذا الضوء على أن يثبت ويقوى فيغمر الأرض بحرارته وجماله ويبعث فيها القوة والنشاط ، أم مُنهزم هو أمام السحب التى تسعى من بعيد سعياً رفيقاً ولكنه مُلح ؟ وما هى إلاّ ساعة أو بعض ساعة حتى كان جواب هذا السؤال واضحاً ،

فقد انجاب عن الرّبى والآكام هذا الغشاء الرقيق المتّهاهل من ضوء الشمس ، وامتلأ الجو بهذا السحاب الذى كان يسعى ثقيلاً يبطىء من ثقله لا من رفقه ولا من كسله ؛ وهذه الآكام تحتجب عنا ، وهذه الرّبى تخفى علينا ، وهذه آفاقنا تحدّ من كل وجه، وهذا السحاب الثقيل البطىء يدنو من الأرض ويسعى فى السماء وكأنه يزحف على الأرض زحفاً ، وهذة ظلمة كثيفة تأخذنا من كل وجه ، وها نحن أولاء نتحدث فيما بيننا بأنّ يومنا لن يكون مضيئاً ولا مشرقاً ولن يكون يومَ عمل ونشاط .

وما نطيل الحديث فى ذلك، فقد أخذنا نسمع قصف الرعد بعيداً ولكنه يدنو ، وإنها لعاصفة عنيفة ، وقد ثارت فى السماء فوقفت الحركة وألجأت الناس إلى دورهم ؛ وهذا المطر ينهمر غزيراً عنيفاً ، وكل شيء يدل على أنه سيتصل وسيستغرق اليوم كله ، وها نحن أولاء قد لجأنا إلى دارنا كما لجأ الناس ، وخلونا إلى أنفسنا وأخذنا نشغلها بالحديث حيناً ، وبهذه الأعمال اليسيرة حيناً آخر ، ولكن الغريب فى أمرنا أن صبرنا على الحديث ضئيل ، ليس له حظ من ثبات أو استقرار ، كأنما يخاف بعضنا بعضاً ، وكأنما يشفق بعضنا من بعض ، وكأنما نحذر

إن اتصل الحديث أن ينتهى بنا إلى ما لا نحب ، فنحن نقتصد فيه اقتصاداً، وينتهى بنا إلى البخل والإغراق فى الصمت. وأى شىء أبغض من الصمت المتصل بين أسرة متحابة متعاطفة؟ لا تستطيع الحديث ، لأنه قد ينتهى بها إلى ما تكره ؛ ولا تستطيع الصمت، لأنه قد يكون أسرع بها من الحديث إلى ما لا تحبّ !

وإذاً فليفرّ بعضنا من بعض حتى لا يؤذى بعضنا بعضاً بالحديث ولا بالصمت، وقد فعلنا، فأما أنا فخلوت إلى الكتب، وأما أبواى وأخى فالله يعلم إلام خلوا وبماذا اشتغلوا ؟

وتجمعنا المائدة ، فيا له من اجتماع كئيب كله حيرة وكله ألم ، وكله تردّد بين هذا الحديث المتقطع الذى لا غناء فيه ، وهذا الصمت الكثيف الملح الذى يريد أن يتصل ، والذي يقول أكثر من كل حديث ؛ ومع ذلك فقد لاحظتُ غموضاً فى وجه أمى وشيئاً من الإلغاز فى وجه أبى ، ولاحظت فيما كانا يلقيان إلىّ من النظرات شيئاً من العناية لم أتعوده من قبل ، فيه إشفاق ظاهر وحنان قوىّ وحب لم يتعودا أن يظهراه على هذا النحو ؛ ولم يكن حديثهما إلىّ على تقطعه وندرته يخلو من بعض هذا ، فقد


بيكار

كان الصوت رقيقاً عذباً أرقّ وأعذب مما ألفت ، وكانت الجمل غامضة ملتوية بعض الشيء ، وكان فيها تلميح للمستقبل ولكنه تلميح حزين يريد أن يخفى حزنه وأن يظهر مسروراً مبتهجاً بعض السرور والابتهاج ؛ ولم يكن أخى بأوضح من أبوىّ وجهاً ولا نظراً ، ولكن غموض وجهه ونظراته لم يكن يشوبه الحنان والعطف ولا الإشفاق والحب ، وإنما كانت تشوبه هذه الدعابة الماكرة التى ألفتها منه ، والتى ضقت بها غير مرة لأنها لا تخلو من قسوة تبعث الحنق وتثير الغيظ ، وربما رأيت على وجهه بين حين وحين ابتسامة لا تخلو من سخرية ، ولكنها فى الوقت نفسه لا تخلو من مودة ودعابة ومزاح . ليس من شك فى أن بينهم أمراً يخفونه ولا يريدون أن أظهر عليه إلا شيئاً فشيئاً ، كأنهم يهيئوننى له تهيئة ويعدوننى له إعداداً ؛ فما عسى أن يكون هذا الشىء ؟

لقد فكرت فيه ، وزعمت لنفسى أنى لا أعرفه ، وأنى حريصة على معرفته ، وأنى ضيقة بجهلى له وغموضه علىّ ، وما أرى إلا أنى كذبت على نفسى ، وما أرى إلا أنى تعمدت هذا الكذب ، فإن نفوسنا نحن الفتيات — حين نبلغ من حياتنا هذا الطور

الذى أنا فيه ــ معقدةٌ أشدّ التعقيد ، ملتويةٌ أعظمَ الالتواء؟ والغريب أنّ آباءنا يظنون بنا السذاجة ويأخذوننا كما يروننا ، وينتهى إيمانهم بسذاجتنا إلى أن يقنعنا نحن بهذه السذاجة ، وإلى أن يخدعنا نحن عن أنفسنا ، وإلى أن يخيل إلينا ويُلقى فى روعنا أننا كما يظنون ، لا نفهم الحياة ولا نتعمقها ، ولا نكاد نعرف ما يهيأ لنا وما يراد بنا ! ونحن ننظم سيرتنا على هذا النحو من النفاق ، من النفاق الذى لا نكاد نحسه ولا نتبينه ، فضلا عن أن نعتمده أو نقصدَ إليه .

كذلك أرادت أوضاع الحياة الاجتماعية أن يُخدع الآباء عن أبنائهم ، وأن يُخدع الأبناء عن أنفسهم ، وأن تمثل فى كل دار بين الشباب والشيوخ ، أو بين الجيل الذى يستقبل الحياة والجيل الذى يستدبرها ، قصةٌ قوامها هذا النحو من الخداع ، تضحك أحياناً ، ولكنها تحزن وتسوء فى كثير من الأحيان !

زعمت لنفسى أصيل هذا اليوم أنى لم أفهم غموض أبوىّ وتلميحهما ، وأنى لم أفهم غموض أخى ودعابته ، ولكننى كنت كاذبة على نفسى ، ولن أكذب عليك أيها الدفتر العزيز ، فقد عاهدتك على أن تعرفنى كما أنا ، واستعنتك على أن أعرف

نفسى . لقد فهمت عن أبوىّ وعن أخى كلّ شىء . إنما كانوا يعرّضون بالمستقبل القريب ، ويشيرون إلى خطبة تضطرب أحاديثها فى الجو من حولى وتهيأ لها الأسباب نهئية ، وهم يخفون أمرها علىّ حتى يتمّ الإعداد لها ، وحتى يصبح الحديث إلىّ فيها مجدياً لا ينتهى بى إلى خيبة أمل؛ وأنا أعرف هذا كله ، وأرقب هذا كله محبة لأبوى ، راحمة لسذاجتهما ، مكبرة لحنانهما ، ممزقة القلب من الحزن أن تتهيأ الحياة لتبتسم لى ، ومن حولى كلّ هذا الحزن العابس وكلّ هذا الألم العميق !

٦

ولكنى لا أعرف من أمر هذه الخطبة التى تهيأ ويتصل فيها حديثُ الأسرة أكثر مما ذكرت . وما أخفى عليك ولا على نفسى أيها الدفتر العزيز أنى قد ضقت بهذا الجهل ، وثقل علىّ هذا الغموض ، ووددتُ غيرَ مرة لو استطعت أن أنفذ إلى قلب من هذه القلوب الثلاثة الكريمة التى تحيط بِى وتمتلىء بحبى ، لأرى ما يثور فيه من عاطفة ، وما يضطرب فيه من تفكير ؛ ولكنى لم أحاول قطّ أن أسترق السمع ، أو أختلس بعض ما يتصل من حديث ، لأنى أرى ذلك نكراً يأباه الخلق ، وتنكره سيرة الفتاة المهذبة التى نشئت تنشئة حسنة ورُبيت تربية صالحة . وأىّ شىء أبغض من التسمع على الآباء والاحتيال فى استراق الحديث ؟ وقد أنحدرُ فى التفكير إلى أعماق نفسى فأستكشف شيئاً لا أكاد أحققه ، ولكنى أضيق به ضيقاً شديداً ، فقد يخيل إلىّ أن الذى دفعنى إلى أن أتخذك لى صديقاً ، وأحاول أن أفضى إليك بأسرار نفسى ، إنما هو هذا الشعور الغامض الذى

وجدته منذ أيام حين أحسست الغموض الطارئ على ما بيني وبين الأسرة من صلة ، وحين تبينت أو خيل إلىّ أنى أتبينُ من هذا الغموض تفكيراً فى الخطبة وتهيئة للزواج . لم أكن أستطيع أن أبادى بهذا الحديث أخى ، أو أحدَ أبوىّ ، فضلا عن أن أبادى به إحدى صديقاتى ؛ وقد هممتُ أن أطيل الحديث فيه إلى نفسى مفكرة مقدرة ، ولكنى وجدت فى ذلك مشقة وعنه عجزاً .

لم أكن أحاول التفكير فيه حتى أصرف عنه وتدفع نفسى إلى التفرّق وخواطرى إلى الشرود ، فلم أرَ بدا من الالتجاء إليك ؛ والاعتماد عليك ، لأجمع هذه النفس المتفرقة ، وأردّ هذه الخواطر الشاردة ؛ وما أرى أنى قد ألقيت إليك كل هذه الأحاديث إلا فراراً من هذه الحقيقة التى أواجهها الآن ، وتأخيراً لهذه الساعة التى لا أستطيع الآن لها تأخيراً . إنى لأجدُ مشقة شديدة فى تحليل هذا الشعور الذى يغمر نفسى ويملأ قلبى منذ استكشفت سرّ أبوىّ دون أن أصل إلى كنهه أو أتبين جليته ؛ فأنا سعيدة من غير شك وإن كنت أخفى هذه السعادة حتى على نفسى ، لأن الأوضاع الاجتماعية تريدنى على ذلك . أنا سعيدة

حين أفكر فى هذه الخطبة التى تهيأ، وفى هذا الزواج الذى يعدّ؛ وأىّ فتاة مثلى لا تسعد بالتفكير فى الخطبة والزواج ؟ وأنا ثائرة أشدّ الثورة ، بأن أبوىّ يفكران فى ذلك وحدهما ، ويستأثران به من دونى، ولا يشركاننى فيما يكون بينهما من تفكير أو حديث، كأنما الأمر يعنيهما أكثر مما يعنينى ، ويمسهما أكثرَ مما يمسنى . وأنا مشفقةٌ من عواقب استئثارهما بهذا الأمر ، وانفرادهما بالتفكير فيه ، أخشى أن يتقدّما فيه إلى أبعد مما ينبغى ، وأن أصبح أو أمسى ذات يوم وإذا أنا أمام أمر واقع لا أستطيع أن أتخلص منه إلا بالعنف الذى أكرهه ، وبالخلاف عن أمر أحبّ الناس إلىّ وآثرهم عندى وأكرمهم علىّ .

ثم أنا بعد هذا وذاك حائرة ، يكاد حبى للمعرفة يقهر كلّ عاطفة أخرى فى نفسى ، ويملك علىّ كلّ أمرى، ويصرفنى إلاّ عن البحث والتفكير فيمن عسى أن يكون هذا الشاب الذى يفكر أبواى فيه ويهيئان للصلة بينى وبينه .

يا للعجب ! متى يشعر الآباء بأن الزواج لا يهيأ على هذا النحو ، وبأن الخطبة لا تعدّ على هذا الأسلوب ، وبأنّ أمر الحب لا يدبر تدبيراً ؟ ومع ذلك فقد قلت ، وما زلت أقول :



إنى سعيدة بالتفكير فى الخطبة والزواج ؛ وآية ذلك هذا الذهول الذى يستغرق أكثر وقتى حين أخلو إلى نفسى ، والذى تملؤه أحلام غريبة ، منها الجميل الرائع ، ومنها المخيف البشع ، وكلها على ذلك يرضينى ويملأ نفسى سروراً وابتهاجاً . ومن يدرى ! لعل فى تكتم أبوىّ واستئثارهما بالأمر من دونى بعض الخير ، فهو الذى يتيح لى هذه الأحلام ، ويغمرنى بهذا الذهول ، ويدفع نفسى إلى هيام لا يخلو من لذة لعل الأخلاق تنكرها ، ولعل الحياء — حياء العذارى — يمنعنى أن أسطرها أو أصورها ، لولا أنى أفضى بذات نفسى إلى صديق مثلك أمين يتلقى الأسرار فيخفيها حتى على نفسه .

إنى لأستعرض عدداً غير قليل من الشباب الذين أظنّ بهم الكفاءة ، وأقدر أنهم خليقون أن يفكروا فىّ ، أو يسألوا عنى ، أو يطمعوا فى القرب من أسرتى ؛ أستعرضهم وأرى نفسى تتنقل بينهم كما تتنقل النحلة بين الألوان المختلفة من الزهر ، لا تكاد تلمّ بهذه الزهرة حتى تنتقل منها إلى زهرة أخرى ، ثم إلى زهرة ثالثة ، وعلى هذا النحو . وإنى لأستحيى من هذا الهيام الآثم الذى لا أرضاه من غيرى لو أقبل عليه غيرى ، ولكنى مع ذلك أعترف

بأنى غارقة فيه ، مؤثرة له ، مستمتعة به ، معتذرة مع ذلك عن نفسى ، لأن أبوى هما اللذان دفعانى إليه حين استأثرا من دونى بالتفكير فى أمر هذه الخطبة . ولو أنهما أظهرانى على ما يدبران من الأمر لاقتصرت هذه النحلة الهائمة المتنقلة على زهرة واحدة. فوقفت عندها ولم تعدها إلى غيرها من الزهر ، ولم تضطر إلى الاستمتاع راغمة بهذا الهيام الحلو البغيض !

وكذلك أنفق ساعات طوالا مع هذا الشاب أو ذاك من شباب القرية ومن شباب القرى المجاورة ، فأسمع منه وأتحدث إليه وأبلو أخلاقه وأمتحن سيرته ، وأنصرف عنه راضية حيناً ، وساخطة حيناً آخر ، حامدة مرة وناقدة مرة أخرى ؛ وأنا مع ذلك سجينة غرفتى ، أو مضطربة فى البيت ، أو متنزهة فى الحديقة ، خالية إلى نفسى على كل حال ، لا أرى من هؤلاء الشباب أحداً ولا ألقاه بحديث ، حتى طال على هذا الأمر وثقل على نفسى هذا الهيام ، وأخذت أكره التفكير فى الخطبة والزواج ، وأتمنى أن ينجلى هذا الغموض ، وأن تتاح لنفسى هذه الهائمة غاية واضحة تقف عندها مفكرة مقدرة فتقبل عليها آخر الأمر أو تنصرف عنها .

٧

وهذا يوم من الأيام ينقضى كما انقضت هذه الأيام القليلة الماضية ، لا تنجلى فيه الحقيقة لهذه النفس الحائرة ، ولا تستطيع نفسى أن تبرأ من حيرتها وأن تفكر فى غير ما دفعت إلى التفكير فيه ؛ ومع ذلك فقد حاولت أن أشغلها عن ذلك بالقراءة وبالحديث ، فلما لم تغن القراءة ولا الحديث تكلفتُ شيئاً من النشاط ، فخرجت للتروض وأبعدت فى المشى ، ولكنى رجعت كما خرجت مُفرقة النفس شاردةَ الخواطر ، مضطربة بين الثورة والهيام ، فلم أكد أستقرّ وأستريح من جهد الرياضة حتى استأنفت النشاط وخرجت فزرت بعض الصديقات وأخذت معهن فى ألوان من الحديث مختلفة ، ولكنى كنت أحسّ دائماً أن لى نفسين : إحداهما تلقى الصديقات وتتحدّث إليهن وتسمع منهن ، والأخرى مقيمة فى أعماق الضمير ظاهرةٌ غير مستخفية ، ناطقةٌ غير صامتة ، تبحث وتستقصى ، وتسأل وتُلحّ فى السؤال ، وتهيم وتشقى بالهيام . وما أظنّ إن اتصل الأمر على هذا النحو

إلا أنه سيظهر لأسرتى ، وستنكر أمى بعض سيرتى ، وسأضيق بهذا الإنكار وبما سيتبعه من السؤال .

ما أشد حاجتى إلى رحلة قصيرة تخرجنى من هذه البيئة وتصرفنى عن هذه الخواطر ! ولكن هل إلى الرحلة من سبيل ؟ إنّ قوانين الأسرة صارمة صلبة لا مرونةَ فيها ولا لين . الرحلة ميسرة لنا فى الصيف ، نصعد فى الجبل إلى أرفع من هذه القرية التى نعيش فيها ، أو ننحدر إلى المدينة أو إلى ما يليها من شواطىء ، أو نبعد فى السفر فنهبط إلى ساحل البحر ، فنغير الجو والإقليم تغييراً تاماً . وقد كانت الأعوام التى سبقت الحرب تتيح لنا الإمعان فى السفر وتجاوزَ حدود فرنسا من هذه الناحية أو تلك ، وربما سمحت لنا بركوب البحر وعبوره أيضاً .

الرحلة ميسرة فى الصيف لأنها تتيح لنا الاستمتاع بحقنا من الراحة ، والرحلة ممكنة فى الشتاء على أن تكون قصيرة ، وعلى أن تكون قريبة ، وعلى أن تدعو إليها الظروف ، فقد نزور هذا الفرع أو ذاك من فروع الأسرة التى أراد حسنُ الحظ ألاّ تجتمع فى قرية واحدة أو فى إقليم واحد ، وإن تقاربت مواطنها وسهل تزاورها . الرحلة ميسرة فى الصيف ممكنة فى الشتاء ، ولكنها

محظورة فى غيرهما من فصول السنة إلا أن تدعو إليها ظروف قاهرة ؛ ومهما تكن رغبتى فى الرحلة فإنى أوثر البقاء على أن أرحل مستجيبة لبعض هذه الظروف ؛ وما أدرى بعد ذلك ، أواجدةٌ أنا فى نفسى الشجاعة على السفر إن تهيأت لى أسبابه ؟ فليس من اليسير ولا من الأشياء التى أستطيع احتمالها تركُ هذين الشيخين المحزونين ، وهذه الأمّ البائسة ذات القلب الكسير والبال الكاسف ، والحياة التى أظلمت من جميع جوانبها ، ولم يبق فيها إلا هذا الضوء الضئيل الذى يأتى من أخى ومنى فيعينها ويُعين زوجها على الصبر والاحتمال .

لا ! ليس إلى الرحلة من سبيل ، وما ينبغى التفكير فيها فضلا عن التحدث بها ، وحسبى أن يوماً سيأتى بعد وقت طويل أو قصير أرحل فيه عن هذه الدار وأنأى فيه عن هذين الشيخين ، وأن هذا مصير أخى ، وأنّ أمر هذين الأبوين صائرٌ إلى هذه الوحدة المنكرة التى لا أفكر فيها إلا امتلأت نفسى حزناً ، وامتلأ منها قلبى رعباً ؛ وحسبى أنّ هذين الأبوين الكريمين يهيئان لأنفسهما هذه الوحدة ، ويعدّان لأنفسهما هذه العزلة ، يؤديان بذلك ما يريانه واجباً عليهما وحقاً لنا ، لا يفكران فيما هما أهلٌ

له من عطف ، ولا يذكران ما قد يحتاجان إليه من معونة . إنهما يفكران فى ذلك ويجدّان ، هما الآن يفكران فى خطبتى وزواجى ، وسيفكران غداً إن لم يكونا قد فكرا فى خطبة أخى وزواجه ، وهل لهذا كله نتيجة بالقياس إليهما إلا الوحدة المظلمة والعزلة المؤلمة ، والحياةُ القاتمة التى يحياها أصحابها وقد يئسوا من ماض لا سبيل إلى عودته، وانتظروا مستقبلا أيسرُ ما يقال فيه أنه الضعف والعجز والفناء والموت ؟

كلا ! ما ينبغى لى أن أفكر فى الرحلة ، بل ما ينبغى لى أن أفكر فى فراق هذين الشيخين قبل أن يكون لى من هذا الفراق بدّ ، بل ما ينبغى لى أن أضيق بشىء أو أن أظهر لهما أنى ضيقة بشىء ، وإنما أيسرُ حقهما علىّ ألا يريا منى إلا وجهاً مشرقاً ، وثغراً باسماً ، ونفساً راضية ، وقلباً مطمئنا يملؤه الحبّ والوفاء ويفيض منه العطف والحنان .

وإنى لقادرةٌ على ذلك ، وإنى لراغبةٌ فيه حريصةٌ عليه ، لولا هذا الخاطر الثقيل الملحّ الغامض الذى أثاره فى نفسى أمرُ الخطبة وحديثُ الزواج .

أعنّى ، أيها الدفتر العزيز ، على أن أكون جلدة حازمة

ضابطة لأمرى ، مالكة لنفسى ، مسيطرة على عواطفى وخواطرى ، محتملة لهذا الهيام الغريب الذى أحبه وأبغضه ، والذى أقدم عليه وأحجم عنه .

أعنى ، أيها الدفتر العزيز ، فإنى فى حاجة إلى معونتك لأقف من نفسى ومن أبوىّ هذا الموقف الغريب ، الذى لا أكاد أتصوره حتى أرتاع له ، وأضحك منه ؛ فهو مروّع حقاً ومضحك حقاً . أتريد أن أفضى إليك بخبيئة نفسى ودخيلة ضميرى ؟ إذاً فأصغ إلىّ ، واستمع لى ، ولا تضحك منى . . . إنى عاشقة قد تيمها العشق ، ولكنى عاشقة لشخص مجهول لا أعرف من أمره شيئاً ، هو هذا الذى يفكر أبواى فى أن يكون لى زوجاً !

٨

إنك تسرفين فى السهر يا ابنتى ، وأخشى أن يؤثر ذلك فى صحتك ، بل أكاد ألمح آثاره ، فإنى أرى لونك حائلا ووجهك شاحباً ، وأحس منك فتوراً لم أتعوده ولا أحب أن أحسه .

قالت لى أمى ذلك بعد أن منحتنى قبلة الصباح ، ثم وضعت يدها على كتفى ، وحدّقتْ فى وجهى فأطالت التحديق ، ثم ضمتنى إليها ووضعت على خدى قبلتين لم تكد تفرغ منهما حتى انحدرت من عينيها دموع غزار ، وحتى خنقت العبرة صوتها فولت منصرفة ومضت إلى غرفتها لا تلوى على شىء ؛ وكان هذا كله مفاجئاً لم أكن أتوقعه ، وكان هذا كله سريعاً لم يتح لى أن أفكر فيه ؛ دفعتها إليه الغريزة ، ودفعها إليه ما يملأ حياتها من حزن وإشفاق ؛ ولم أكن أقلّ منها تأثراً بالغريزة ، فمضيت فى أثرها مسرعة حتى انتهيت إلى غرفتها ، فإذا هى جاثية أمام الصليب صامتةً مغرقة فى الصمت ، لا ينطلق لسانها بالصلاة ولا يندفع صوتها بالبكاء ، والدموع تنحدر من عينيها

صامتة أيضاً ، وقد أظلها الحزن الهادىء الوديع بجناحيه ، فظهرت عليها سكينة مؤثرة تملأ القلب حزناً وأسى ، وتشيع فيه رهبة وجلالا . وقد قمت منها غيرَ بعيد ، ولبثتُ أرمقها بنظرات ما أرى إلا أنها كانت تحمل بعضَ ما كان يفيض به قلبي من حب وحنان ، وكأنها أحستْ وقعَ هذه النظرات على شخصها فتحولتْ عن الصليب فى أناة وهدوء ، ثم نهضت متثاقلة وهى تهدى إلىّ ابتسامة حلوة يبلها الدمع ، ثم سعت إلىّ حتى بلغت مكانى فضمتنى إليها مرة أخرى وقبلتنى متهالكة متماسكة ، ثم أخذت بيدى ومضت تسعى حتى انتهت إلى كرسى طويل فجلست وأجلستنى إلى جانبها ، وطوّقت عنقى بذراعها ، وجعلت تنظر إلىّ فتطيل النظر ولا تقول شيئاً . وما أشك فى أن نظرها هذا الصامت الطويل إنما كان صراعاً بين حبها لى وحزنها هذا المتصل ، وكانت تريد أن تردّ الحزن إلى مقره من أعماق نفسها ، وأن تقيم فى المكان الظاهر من قلبها حبها لى وبرّها بى وعطفا علىّ ، وقد أتيح لها ذلك بعد لحظة ، فجعلت تلاطفنى بيدها ، تمسح بها خدى مرة وتجرى أصابعها فى شعرى مرة أخرى ، وجعل نظرها إلىّ يتصل كما كان ولكنه يهدأ ويرق ويلين

حتى صار حناناً وعطفاً ، ولم يتح للسانها مع ذلك أن ينطلق بشيء ، ولم يتح لشفتيها مع ذلك أن تنفرجا عن شيء :

والغريب أن لسانى أنا أيضاً قد ظل معقوداً ، وأن شفتى أنا أيضاً قد ظلتا مقفلتين ، وقد كنت مع ذلك أدرت فى نفسى كلاماً أريد أن أقوله لها وقدرت فى خاطرى ألفاظاً حلوة أريد أن أرسلها إلى نفسها الثائرة وقلبها المكتئب ، ولكنى أنسيت كلّ شيء ولم أجد فى نفسى شيئاً ، ولم أستطع أن أدير لسانى بحرف ؛ وإذا أنا ألاطفها كما تلاطفنى ، وأداعب خدها وشعرها كما تداعب خدى وشعرى ، وأقبلها بين حين وحين .

وما أدرى أطال مجلسنا هذا أم قصر ، ولكنى أعلم أنى كنت أسرع منها إلى النشاط ، فقد نهضت خفيفة رشيقة فاستقبلتها ، ثم انحنيت عليها فأخذت كتفيها فهززتهما هزاً عنيفاً رفيقاً معاً ، وأنا أقول لها فى صوت حزين يتكلف الفرح ، وبوجه عابس يتصنع الابتسام : « هلمّ هلمّ يا أماه ! ما هذه القصة الصامتة التى أخذنا فى تمثيلها منذ اليوم ؟ أى شيء طرأ وأى حادث عرض ! ألم أنهك عن هذا البكاء ؟ ألم أحرم عليك هذا الإغراق فى الحزن ؟ ما أجمل هذه التحية التى استقبلتنى بها ! هكذا

تلقى الأمهات بناتهن حين يشرق لهن وجه النهار ؟ هلمّ هلمّ يا أماه ! إنك خليقة أن أغضب عليك وأن أعاقبك عقاباً شديداً فأعبس لك النهار كله وأعرض عن حديثك إلى الغد ! هلمّ هلمّ ! ما كنت أدرى أن السن تتقدم بك فتردك إلى سيرة الصبية والأطفال » .

أقول لها ذلك متكلفة أول الأمر ، ولكن التكلف يزول شيئاً فشيئاً ، وإذا أنا أرانى جادة ، ويخيل الىّ أنى قد صرت لها أماً وأنها قد صارت لى بنتاً ناشئة ، وأنى أؤدبها وأهذبها وآخذها فى سيرتها بالرشد والصواب ، وإذا أنا أنهضها فلا تمتنع علىّ ، وإنما تستجيب لى فتنهض غير متثاقلة ، وإذا أنا أطوق خصرها بذراعى وأسعى معها رفيقة ، فتسعى مطيعة مذعنة وعلى وجهها إشراق كئيب ، وعلى ثغرها ابتسام حزين ، حتى إذا خرجنا من غرفتها وأغلقت الباب من دوننا قلت لها فى لهجة العاتبة : لقد أخرت ساعة إفطارى ألا تستحين ؟ إنك قد أفطرت من غير شك فلا عليك ألا يفطر الناس ، ومع ذلك فإنى لن أفطر الآن عقاباً لك!

فتلتفت إلىّ وتهم أن تتكلم ، تريد من غير شك أن تحرّضنى على الإفطار ، ولكنى أريحها من الكلام قائلة : لقد صرفت

نفسى عن الرغبة فى الطعام والشراب ، ولا بد لى من لحظات قصار أتنسم فيها الهواء وأطوف فى أثنائها بالحديقة ، وأحس ّ فى أثنائها ما يملأ الحديقة من زهر وشجر ، وأتلقى تحية الزهر والشجر أيضاً ، وستشهدين هذا كله ، وسترافقيننى فى هذه الرياضة ، فلعلها تردّ إليك بعض الحكمة ، ولعلك تثوبين معها إلى الرشد ، ولعلها تهيئك لإفطار جديد فلن أفطر وحدى هذا اليوم ، ولا بدّ من أن تحتملى هذه الخطيئة التى لا أغتفرها !

أقول لها هذا كله فى صوت يضطرب بين الشدة والهدوء ، وبين التكلف والجد ، وهى تسمع لى مذعنة أول الأمر ، ثم مقبلة على مبتسمة لى ؛ وما هى إلا لحظات حتى نكون فى الحديقة مطوّفتين ، أنا أقف بها من حين إلى حين عند هذه الجماعة أو تلك من النجوم والأزهار ، متحدثة إليها ألواناً من الحديث عن هذه النجوم والأزهار ، داعية البستانى بين وقت ووقت ، أستفسر منه مرة ، وألومه طوراً ، وأنهاه طوراً ، وما أزال على ذلك حتى أردّ إلى قلبها بعضَ الأمن ، وإلى نفسها بعض الهدوء ، وإذا هى تشاركنى فى بعض الحديث ، وتوافقنى فى هذه الملاحظة وتخالفنى فى تلك ، حتى إذا بلغتُ من ذلك كله

مأربى رجعت بها إلى غرفة المائدة ، فاضطرّتْ متكلفة ، وأكرهتها على أن تشرب قدحاً من القهوة ، ثم أمضيت معها الضحا كله أجاذبها أطراف الحديث فى شئون مختلفة متباينة ، لا تتصل بى ولا بأخى ، ولا بالفقيدين الشهيدين ، وإنما تتصل بأهون الأشياء وأيسرها وأجدرها أن ينفق فيه الوقت ويستعان به على احتمال الحزن والألم .

وكذلك أنفقنا صباح اليوم حليفتين على دفع هذا الضيف البغيض الذى أراد أن يغزو دارنا وأن يفسد أمرنا وأن يردّنا إلى شرّ ما كنا . ولم أفارق أمى إلا حين تقدّم المساء ، وبعد أن فرغنا من غدائنا ومن هذا الحديث الذى تعودنا أن نأخذ فيه بعد الغداء ، ولم أتركها وحيدة ، وإنما أوصيت بها إلى أبى ونبهته فى رفق إلى أنها لم تكن حكيمة ولا رشيدة صباح اليوم . ومن يدرى ! لعله هو أيضاً لم يكن حكيماً ولا رشيداً ، ولعله لم يكن أقلّ منها حزناً ، ولكن الرجال يحسنون الصبر ويتقنون التجلد ، ويبلغون من كظم الحزن وإخفاء العواطف ما لا يبلغ النساء .

وخلوت إلى نفسى بعد ذلك فجعلت أستعرض ما كان من الأمر وألتمس له كما تعودتُ العللَ والأسباب ، ولكنى لم أستطع

أن أردّ هذه الأزمة الطارئة المفاجئة إلى سبب معقول أستريح إليه؛ وكيف عرفت أمى أنى أسرف فى السهر ؟ إنها إذاً تلاحظنى أكثر مما كنت أظن ؛ لقد كنت أحسب أنى كنت آمنة على خلوتى إذا افترقنا حين يتقدم الليل ، وأن كلاّ منا يأوى إلى غرفته فيفرغ لنفسه من كل إنسان ومن كل شىء ، وتؤجل الصلات بينه وبين الناس والأشياء إلى غد ، ويستمتع بحريته الكاملة ساعة قبل أن يغلبه النوم . كنت أظن ذلك ، ولكنى كنت واهمة ، فهذه أمى تلحظنى بعد أن نفترق ، وتعرف أنى أسرف فى السهر ، وتلومنى فى ذلك لوماً رفيقاً .

وليس من شك فى أنها تلاحظنى منذ أيام ، فهى لم تقل لى لقد أسرفت فى السهر أمس ، أو أول من أمس ، وإنما قالت لى : إنك تسرفين فى السهر . إنها لا تتعمد هذه الملاحظة ، فليس هذا من خلقها ، ولكن المسكينة مؤرقة دائماً تسرف فى السهر اضطراراً لا عن عمد ، وما أكثر ما يضطرها الأرق إلى النهوض من سريرها والاضطراب فى غرفتها والوقوف إلى النافذة تستنشق الهواء وتنظر إلى السماء ، ولعلها تلتمس نفَسَ هذا أو ذاك من فقيديها الشهيدين ، متحيرة بين هذه الأشعة الضئيلة التى ترسلها النجوم إلى

الأرض ؛ وأكبر الظن أنها لاحظت الضوء ينبعث من نافذتى ، فصبرت على ذلك مرة ومرة ، فلما تكررت الملاحظة وطال الأمر لم تطق على ذلك صبراً ، فدفعها الإشفاق إلى هذا التنبيه. والغريب أن لنافذتى أبواباً ، وأن من دونها أستاراً ، وأن هذه الاستار إن أسدلت وتلك الأبواب إن أغلقت خليقة أن تحجب الضوء وتمنعه من النفوذ .

ولكنى لا أحسن إليك الخلوة أيها الدفتر العزيز ، ولا أحتاط حين أناجيك وأفضى إليك بأسرار الضمير ! على أنى لم أفهم كيف انتهى إشفاق أمى علىّ من الإسراف فى السهر بنفسها إلى هذه الأزمة الحادة ، فقد كان من أيسر الأشياء أن تدعونى إلى ما تحبُ ، وتنهانى عما تكره ، دون أن يضطرب قلبها هذا الاضطراب العنيف . أترى حزنها يعظم لها الهين من الأمر ، ويكبر لها الصغير من الشأن ، ويخيفها من أقل الأشياء دُعاء للخوف؟ أترى فقدها لابنيها يملأ قلبها حرصاً على استبقاء ابنيها الآخرين ، فهى تشفق عليهما من أيسر الأمر وأهونه ؟ أم ترى أن فى الأمر شيئاً آخر ، وأنها لم تكد تتحدث إلىّ وتضمنى إليها حتى ثارت فى نفسها عواطف ، وعرضت لها شؤون ، وتصوّرت المستقبل

القريب أو البعيد ، وأشفقت من فراق قريب أو بعيد ، فثارت العاصفة وكانت الأزمة ؟

وإذاً فما زلنا فى هذا السر الغامض والحديث الملتوى والتفكير الخفىّ فى الخطبة والزواج !

ولم تطل خلوتى إلى نفسى ، ولم يطل تفكيرى فى هذا الأمر ، فهذا أخى قد أقبل على غير عادة فجعل يخلط الهزل بالجد ، ثم أظهر الرغبة فى أن يخرج معى للتروض ؛ وقد أنكرت عليه ذلك فلم يحفل بالإنكار ، وامتنعت عليه فلم يأبه للامتناع ، وظفر فى آخر الأمر بما أراد فأخرجنى من الغرفة ثم من الدار ، وجعل يهيم بى فى الغابات هابطاً ومصعداً ومحدثاً أفانينَ من اللعب والمرح والجنون ، ولم يردّنى إلى الدار إلا حين آن وقت العشاء .

لقد سلاّنى حزن أمى عن نفسى صباح اليوم ، وسلاّنى مرحُ أخى عن نفسى مساء اليوم ، وكنت أظن أنى سأستقبل هذه الليلة بما كان من حديث الصباح والمساء ، ولكن أبى أراد أن يشغلنى بشىء غير هذا الحديث .

لقد أقبل علىّ قبل أن نفرغ من العشاء وقال فى صوت هادئ رزين حزين : «إن أمك تشفق من إسرافك فى القراءة ؛ فماذا

تقرئين إذاً ؟» قال أخي : « إنّ أمنا لتشفق من أيسر الأشياء ، وما أرى إلا أن مادلين غارقة في قصصها السخيف تنصرف إليه عن عمل النهار وراحة الليل ، فلا تلمها ولمْ هؤلاء الكتاب الذين يفسدون على الناس حياتهم بما ينشرون من هذا القصص الذى لا رأس له ولا ذيل ! »

ولولا أني ملكت نفسي لوثبت إلى أخي فقبلته ، فقد فتح لي باب المعاذير على غير علم منه ولا إرادة ، وأتاح لى أن أجيب بأن ما يقوله حق ، فأنا عاكفة هذه الأيام على قراءة الكاتب الإنجليزى ويلز . قال أخي : « وليتك تحسنين القراءة ، إنما تتبعين القصة وتعرضين عما فيها من وصف وفن» . قلت : «ما أنت وذاك ! إنك لا تعرف كيف أقرأ ، وأنا على كل حال خير منك ، فأنت لا تقرأ شيئاً » .

وكنت أريد أن يشتد الخصام بين أخي وبيني فأصرف أبي عن هذا الحديث الذى أخذ فيه ، ولكنه قال في صوته الحزين الرزين : «ستختصمان حين تخلوان إلى أنفسكما ، فأما الآن فأني أحبّ لك يا ابنتي أن تقرئي في النهار وتستريحي في الليل ، وإذا لم تحرصي على الراحة لنفسك فاحرصي عليها لتطمئن أمك

وتستريح » . وهممت أن أجيب ، ولكن أبى مضى فى الحديث قائلا : «ليس من الخير أن تغرقى فى القراءة على هذا النحو ، وما أشفق على الشباب من شىء كما أشفق عليه من هذا العكوف المتصل على الكتب ، فإن العقل ليس كلّ شىء ، وقد يكون للجسم بعض الحق فى أن يعيش . وأكبر الظن يا ابنتى أنك ضيّقة بالحياة فى هذه القرية ذات الآفاق المحدودة، وفى أسرتنا هذه التى فقدت ما كانت تألف من فرح وبهجة ، وسنك فى حاجة إلى الفرح والابتهاج . » وأهمّ أن أجيب ولكنه يمضى فى الحديث قائلا : « ولعل من الخير أن تغيرى من حياتك بعض الشىء، وأن تتركى هذه البيئة الشاحبة الحزينة وقتاً ما، وتعيشى فى بيئة أخرى فيها ترفيه عن النفس، وتسلية عن الهمّ، وتحقيق لما ينبغى من نشاط . فكرى فى ذلك ، وسنفكر ، ولكن عدينى منذ الليلة بأنك ستقتصدين فى القراءة وستريحين أمك من هذا الخوف الجديد». قلت وقد اضطربت نفسى أشدّ الاضطراب وظهرت آيات الارتباك فى وجهى وصوتى : « لك ما تشاء يا أبى ، ائذن لى ، ولتأذن لى أمى ، فى أن أمضى الليلة فى القراءة لأتم قصة بدأتها أمس ، وما أرانى أستطيع أن أصبر

عنها إلى غد »، قالت أمى : « الليلة فحسب؟ » قلت : « نعم »
قال أخى : « الأمر أيسر من هذا ، إن عادت إلى السهر قطعنا
عنها ضوء الكهرباء » . وتضاحكنا فى حزن !

ثم افترقنا حين تقدم الليل . وخلوت إليك أيها الدفتر العزيز ،
فلم أتمّ قصة بدأتها ، وإنما حدثتك بما كان من أمرى . وها أنا
هذه حائرة ، لا أدرى كيف تكون خلوتى إليك منذ الغد ؛
وحائرة أيضاً ، لا أدرى كيف خطر لأبى أن ينفينى عن هذه البيئة
الحزينة الشاحبة إلى بيئة أخرى لها حظ من فرح وابتهاج ؛ وحائرة
أيضاً ، لا أدرى أأستجيب إلى ما أراد عليه من الرحيل أم أظهر
الخلافَ والامتناع ؟ ولكن الشىء الذى لا أتردد فيه ، هو أنى
سأخلو إليك ، وسأبثك حديثى فى النهار أو فى الليل ، وفى المقام
أو فى الرحيل !

٩

نظرتُ إلى شخصه فامتلأ به قلبي ، وسمعت صوته ففتنت به نفسي ، وراقصته ساعة فصرفت عن كل شيء .

نعم عن كل شيء حتى عنك أنت أيها الدفتر العزيز ! فقد مضت أيام طوال لم أبثك فيها سري ولم أفض إليك فيها بحديث نفسي ، وكنتُ قد عاهدتك على أن أجدد الخلوة إليك في الليل أو في النهار ، وفي المقام أو في الرحيل ، ولكني لم أفعل كما ترى ؛ وما أدري أأنكرت غيبتي عنك وضقتَ بإبطائي عن لقائك ، ولكن الذي أعلمه أني صرفتُ عنك كارهةً في اليوم الذي تلا آخرَ ما أفضيتُ به إليك من حديث ..

شغلت بأمر هذه الرحلة التي أصبحت فرأيتها قد دبرت لي تدبيراً ، وفرضت عليّ فرضاً ، ولم يبق لي إلا أن أهيئ لها نفسي وآخذ في أسبابها ، ولم يمد لي الوقت للتهيؤ والأخذ في الأسباب ، وإنما دُعيت إلى ذلك أولَ النهار ، وانحدرتْ بي السيارة إلى المدينة في آخره ، وقضيت ما بين ذلك في إعداد ما لم يكن من

إعداده بدّ لغيبة قد تتصل أسابيع .

وانتهيت إلى المدينة حين تقدّم الليل شيئاً ، فكان لقاء عمّي وأبنائها ، وكان العشاء ، وكان السمر المتصل والأحاديث المختلفة ؛ ثم أويت إلى غرفتي متعبة منهالكة ، مؤثرة أن أسلم نفسي إلى النوم على أن أخلوَ إليك لأبثك السر وآمنك على نجوى الضمير . ثم أفيق من غد فإذا أبناء عمّي قد أقبلوا عليّ وكأنما كلفوا أنفسهم أو كلفهم غيرهم أن يحولوا بيني وبين الفراغ لنفسي والخلوة إليها ، فهم لا يفارقونني وجه النهار ، وهم لا يكفون عن التحدّث إلى بألوان الحديث ، وإظهاري على ما تعوّد أمثالهم أن يظهروا عليه مثلي من شؤون دارهم ومن شؤونهم الخاصة ، حتى إذا كان الغداء ، وخيل إليّ أني سأخلو بعده إلى نفسي لأستريح ولأتحدث إليك شيئاً ، حيل بيني وبين هذا أيضاً ، فقد هيأ هؤلاء الشياطين رياضة تستغرق ما بقي من النهار ، رياضة في البحيرة نطوف أثناءها بهذه الشواطيء الجميلة الهادئة المطمئنة التي تبعث في النفوس هدوءاً واطمئناناً ، الباسمة الحزينة التي تبعث في النفس حزناً وابتساماً ، والتي تدفع إلى كثير من التفكير الغريب المؤثر الذي لايستبد به العقل ، وإنما يشترك فيه

العقل والحس والشعور ، والذى ينتهى بصاحبه إلى أن يمتزج بهذه البيئة الحلوة الهادئة ، ويكاد يفنى فيها ، ويحيي فى نفسه رغبات هادئة ولكنها ملحة غامضة ، ولكنها مع ذلك تكاد تنم عن نفسها لثنايا القلب وأعماق الضمير !

رياضة فى هذه البحيرة ، وتطويف بهذه الشواطىء ، وإلمام ببعضها ، ثم تصعيد هادىء فى هذه الربى التى ترتفع فى رفق وكأنها مبسوطة ليس لها حظ من الارتفاع ، ثم انحدار مرة إلى هذه الغابة عن يمين ، وانحراف مرة أخرى إلى هذه الغابة عن شمال ، واضطجاع هنا على هذا العشب الكثيف ، وتنافس هناك فى اقتطاف هذه الأزهار الصغار الدقاق ، وإلى اجتناء هذه الأثمار الوحشية الحلوة التى تمتلىء بها الغابات .... ثم نداء فجائى إلى الإسراع بالعودة ، فقد أقبل الليل ، ولا بدّ من أن نتهيأ للعشاء ، فإنا لن نجلس إلى المائدة وحدنا ، ولكن أسرة فلان مدعوّة إلى العشاء هذا المساء . وما كنت أعرف من أمر هذه الدعوة شيئاً ، وما كنت أفكر إلاّ فى أننا سنقبل على طعامنا كما فعلنا أمس ، وسنسمر طرفاً من الليل نتجاذب فيه الحديث ، وقد نختلف فيه إلى البيانو ، وقد نستمع فيه لبعض الغناء تدعى إليه

هذه أو تلك من بنات عمّى ، فتقبل عليه كارهة أو متكلفةً للكراهة . وكنت أفكر فيما بينى وبين نفسى أنّ القوم سيدعوننى إلى العزف ، وسيلحون علىّ فى الغناء، وكنت أكره ذلك وأضيق به ، ولكننى كنت أذعن له كما أذعن للقضاء المحتوم ؛ فهذه قوانين الأسرة لا سبيل إلى الخلاف عنها أو الامتناع عليها .

وكنت أدير فى نفسى لحنين أو ثلاثةً من ألحان شوبان لأوقعها على البيانو ، وأغنيتين أو ثلاثاً من أغانى فوريه لأغنيها إن دُعيت إلى ذلك .

وكنت أستذكر هذا كله فى أثناء الرياضة والحديث ،وكنت حريصة أشد الحرص على ألاّ يظهر منى ضعف أو يبدو منى تقصير ، فقد لا ينبغى أن يتحدّث عنى بنات عمّى بأنى قد نسيتُ العزف أو قصرت فى الغناء.وإن أمى لحريصةٌ أشدّ الحرص على أن أكون سباقةً فى هذين اللونين من ألوان الفن ،وعلى أن يسجل السبقُ لى حين أكون فى هذا الفرع من فروع أسرتنا خاصة.

كنت أفكر فى هذا كله ، ولكن الأمور جرت على غير ما كنت أقدّر ؛ فقد علمتُ أن القوم يولمون ، وأنهم قد دعوا إلى وليمتهم منذ أيام ، وأنهم تعجلوا هبوطى إليهم من قريتى تلك

المرتفعة الشاهقة لأشهد وليمتهم هذه ، ثم علمتُ — فاشتد ضيقى بما علمت — أن الأمر لن يقتصر على العشاء والسمر ، ولكنه يتجاوز ذلك إلى الرقص ، وإلى الرقص الذى لا يشترك فيه المدعوون إلى العشاء وحدهم ، وإنما سيشترك فيه معهم قومٌ آخرون دُعوا إلى السهرة .

وكان هذا كله قد دبرّ فأحكم تدبيره ، وقد أخفى علىّ وكتم عنى ، ولم يرفع لى عنه الحجاب إلا قبل العشاء بساعة وبعض ساعة . ولو قد علمت ذلك لما استجبت إلى الدعوة ، ولما انحدرت من القرية ، ولامتنعت على أبوىّ حين ألحا علىّ فى الرحلة : فقد انقطع عهدى ، منذ الحرب وما تركتْ فينا من الأحزان ، بهذه الحياة الفرحة المرحة ، وبهذا اللون من ألوان العبث البرىء . وما كنت أشك فى أنى سأعود إلى ذاك يوماً ما ، فلا بد للأحياء من أن يحتملوا الحياة ويتلقوا ما فيها من الخير والشر ، ولكنى كنت أقدر أنى سأعود إلى هذا كله شيئاً فشيئاً وقليلاً قليلاً ، لا على هذا النحو المفاجئ الذى يأخذنى كأنه السيل الذى لا سبيل إلى التحوّل عنه او التخاص منه .

ومهما يكن من شىء فقد وجدتنى مكرهةً على ما لا أحبّ ،

وما أشد ما ضحك منى أبناء عمتى حين رأوا ما ظهر على وجهى من ضيق وسخط ، ومن اضطراب وارتباك، وما أشد ما سخروا منى فى أثناء العودة ، حتى إذا انتهينا إلى الدار تفرقوا عنى ومضوا يصلحون من شؤونهم ويتهيأون لاستقبالهم. وخلوت أنا إلى نفسى فى غرفتى لأصلح من شأنى ، وأتهيأ للاستقبال ، ولكنى رأيتنى أغرق فى بكاء عميق صامت لم أحاول تفسيره ولم أحاول الخروج منه ، وإنما وجدت فيه راحة ووجدت فيه لذة وأحسست فيه وفاء ، وكنت خليقة أن أمضى فيه لولا أن يطرق باب الغرفة طرقاً خفيفاً ، ثم يفتح الباب قبل أن آذن بالدخول ، ثم تظهر عمتى هادئة رزينة ، وقد أغلقت الباب من دونها وسعت إلى مطمئنة وهى تقول فى صوت خافت كأنما تتحدث إلى نفسها : « لم أخطىء التقدير إذاً ! » ثم تدنو منى فتنحنى إلى فتقبلنى ، ثم تنهضنى فتضمنى إليها ضما رفيقاً ملؤه الحنان والحب ، وقد أخذت دموعها هى أيضاً تنحدر ، وقد رجعت تقول لى فى صوت تخنقه العبرة : « لا بأس عليك يا ابنتى ! لقد كنتُ أقدر أنى سأراك فى هذه الحال ، ولقد كنت أشفق أن تمضى فى حزنك هذا حتى يصرفك عما لا بد لك منه . هلم يا ابنتى ، إن

الحياة لا بد من أن تحتمل ، وإن فيها الحزن وإنّ فيها الفرح ، إن فيها الوفاء للموتى ، وإن فيها الوفاء للأحياء ! لم يكن بد يا ابنتى من أن نخرجك من هذا الحزن المتصل الذى ألح عليك أعواماً إلى ما ينبغى لشبابك من الحياة الباسمة المبتهجة . إن اتصال الحزن قد يليق بالشيوخ الذين قضوا الآراب من حياتهم ، وقد ينبغى أن نهون عليهم الآلام ونعينهم على احتمال الخطوب حتى يخرجوا من هذه الحياة وقد ذاقوا من آلامها أقلّ ما يمكن أن يذاق ، ولكنا لا نطمع لهم فى السلو المطلق والعزاء الخالص ، فليس لهم إلى ذلك سبيل . فأما أنت وأترابك من الشباب فإن لكم على الحياة حقاً يجب أن يؤدى إليكم فى هذا الطور من أطوار شبابكم ، وللحياة عليكم حقوقاً ستؤدونها حين تتقدم بكم السن . انظرى إلى أبويك ! لقد نعما بالشباب وذاقا لذاته كلها واستمتعا بما فيه من فنون الترف وألوان الغبطة ، وإنى لأشاركهما يا ابنتى فى الحزن وأشفق عليهما منه ، وأود لو استطعت أن أحطّ بعضَ أثقاله ، ولكننى لم أطق ولن أطيق أن يتسلط الحزن على الشباب وتثقل عليهم وطأته ، فإن الشباب لم يخلقوا للحزن ، ومن الظلم أن يتعجلوا نصيبهم من مرارة الحياة .



«هلمّ يا ابنتى خذى بحظك من النشاط لهذه الليلة التى لم تهيأ إلا لك، والتى يجب أن تظهرى فيها جميلة رائعة كأجمل ما كنت، وكأروع ما يمكن أن تكونى . يجب أن تكونى زينة المائدة ، وزينة المرقص ، ويجب أن يكون لك السبق والتفوق . هلمّ أصلحى من شأنك ، وسأرسل الخادم لتعينك على ما تحتاجين إلى المعونة فيه ، وسأعود لأراك قبل أن تهبطى إلى غرفة المائدة ، ويجب أن أرضى عن زينتك، وإلا فستستأنفين من أمرك كل شىء » .

ثم تقبلنى وتنصرف ، ثم تعود بعد ساعة فتنظر إلىّ مقبلة مدبرة مستعرضة ، وترضى عن كل شىء إلا عن وجهى هذا الذى ينقصه الابتسام والإشراق ، ولكنها مطمئنة إلى أن أبناء عمّى سيفيضون عليه من ذلك ما ينقصه . ثم يكون العشاء والسمر والرقص .

وقد كان بين المدعوين والسامرين والراقصين فتىً نظرتُ إلى شخصه فامتلأ بى قلبى ، وسمعت صوته ففتنتْ به نفسى ، وراقصته ساعةً فصرفتُ إليه عن كل شىء . يا للعجب ! أكنت مهيأة لهذا الفتى ؟ أكان هذا الفتى مهيأ لى ؟ أكانت خطبتى إلى

هذا الفتى موضوع الحديث الغامض بين أبوى وأخى ؟ ما أدرى ، ولكن الفتى تردد على دار عمتى أياماً ، ثم تسألنى عمتى ذات صباح : ما رأيك فى مكسيم جيرو ؟ فلا أدرى كيف أجيب ، وإنما أحس كأنما دمى كله قد صعد إلى وجهى ، وأرى ابتسامة حلوة على ثغر عمتى ، وأسمعها وهى تسعى إلى لتقبلنى : « إنه قد صعد مع أبويه إلى القرية ليزور أبويك . »

١٠

ما أشد حيائى منك ومن نفسى أيها الدفتر العزيز ! لست أدرى أين وجدت القوة التى مددت بها إليك يدي لأستخرجك من مستقرك الذى وُجدت فيه وحيداً مهملاً منسيا أكثر من ثلاثة أعوام ! ولست أدرى كيف فكرتُ فيك ، وأقبلت عليك بعد اطراحى لك وإعراضى عنك ! ولست أدرى كيف أجد القدرة على التحدث إليك الآن بعد أن وجدت القدرة على أن أطوى عنك الأحاديث طولَ هذه الأوقات المتصلة ، التى لا أقدر طولها ولا اتصالها إلا الآن !

ما أشد حيائى منك ومن نفسي ! فإن إقبالى عليك الآن وإفضائى إليك ببعض الحديث لا يدلان إلا على أنى امرأة كسائر النساء ، فيها ضعفهن وقصورهن وغرورهن ، وإلا على أنى كائن من هذه الكائنات التى تزعم أنها مميزة بالثقافة والحضارة وما خصت به الحضارة من ترقية العقل وتصفية الطبع وتنقية الضمير ورفع النفوس عن الصغائر والدنيات ، وما هى فى حقيقة الأمر إلا

كائناتٌ وضيعة قد اتخذت من الثقافة والحضارة طلاء يخدعها عن عيوبها الراسخة التى لا تكاد تفرق بينها وبين غيرها من أنواع الكائنات التى لاحظ لها من ثقافة أو حضارة أو تهذيب !

ما أشد حيائى منك ومن نفسى ، وما أشدّ اختلاط الأمر علىّ ! إنى لأريد أن أستأنفَ الصلة بينك وبينى بعد أن انقطعت فطال انقطاعها ، فلا أجد السبيل إلى ذلك ميسرةً ولا ممهدة ، فأتردد وأضطرب ، وأقدم بين يدى ويديك مقدمات ومعاذير لا تغنى عن الحق شيئاً ، ولا تزيد على أنْ تصور خجلى واستخذائى من هذه الحقيقة البشعة التى أواجهها فتنقبض لها نفسى أشد الانقباض ويشمئز منها قلبى أعظم الاشمئزاز ، وأنظر مع ذلك كارهةً فأطيل النظر ، وأفكر فيها مع ذلك راغمة فأطيل التفكير ، كأنى أجد فيما أحس من الألم لذة ، وفيما أشعرُ به من العذاب غبطةً وسروراً : وهى أنى خائنة غادرة أثرةٌ عاجزة ، نسيتكَ حين كنتُ سعيدةً وذكرتك حين أخذتْ تتراءى لى أشباحُ الشقاء .

ليتكَ أنسيتَ كل ما أفضيتُ به إليك من الأحاديث ، فإنى قد أنسيتها أو كدتُ أنساها ؛ ولكنك قوىّ الذاكرة ، لا تنسى

شيئاً ، شديدُ الأمانة لا تضيع شيئاً ؛ ولقد نظرتُ فيك فرأيت صورة نفسى المضطربة التى ائتمنتك عليها منذ أعوام ، والتى لجأتُ بها إليك ألتمس لما عندك العزاء والمعونة والتسلية ، ورأيتُ ما قدمت إليك من العهود المؤكدة على أن أكون وفيةً لك مقيمةً على الوفاء لما أهديتُ إليك من مودة ولما بادلتك من ثقة ، وإذا أنا أستخذى ، وإذا أنا أضيق بنفسى حتى أزدريها أشد الازدراء ! لقد وفيت لك فأعرضت عنك أكثر من ثلاثة أعوام لا لشىء إلا لأنى كنتُ مشغولةً عنك بهذه السعادة التى غمرتنى فصرفتنى عن الحياة والأحياء ، وأنستنى الناس والأشياء ، ووقفت قلبى وعقلى وحسىّ وشعورى وعواطفى وأهوائى على نفسى وعلى هذا الفتى الذى اختطفنى من الحياة ذاتَ مساء وارتفع بى إلى جو بعيد فى السماء ، فعاش معى فيه تلك العيشة الراضية التى كانت خليقة أن تطهر نفسى من كل رجس وتبرئها من كل عيب ، وتنقيها من كل وضر ، وتسبغ عليها من الفضائل ومكارم الأخلاق ما ينزهها عن الشر والنقص تنزيهاً ؛ ولكنها لم تزد على أن نمت فيها هذه الغرائز البغيضة ، غرائز الأثرة والخيانة والغدر والجحود ! أليس صحيحاً إذاً ما كان يقال من أنّ السعادة

تطهر النفوس ، ومن أن الحب يزكى القلوب ؟ لقد كنتُ سعيدة ، فلم تثر فىّ السعادة إلا الرغبة فى الاستزادة منها ، ولقد كنت محبة ً فلم يثر فىّ الحب إلا الرغبة فى الاستئثار بمن كنتُ أهوى !

هوّن عليك أيها الدفتر العزيز ! إنى لم أهملك وحدك ، ولم أختصلك بالإعراض والنسيان ، ولكنى أهملت معاك قوماً ما كنت أقدر فى يوم من الأيام أنى سأهملهم أو أقصر فى ذاتهم أو أسوءهم بالجحود والعقوق . لقد احتفظتُ بمظاهر الحب والود بينى وبين أسرتى ، فزرتها واستزرتها ، وأقمتُ معها الأيام والليالى ، واضطربتُ معها فى الحياة ، وخضتُ معها فى ألوان الحديث ، ولكن الله وحده يعلم كم آلم الآن حين أذكر ما أثرتُ فى قلب أمى من ألم ، وما بعثتُ فى نفسها من حزن ، وما أفضتُ على قلب أبى من هذا الشعور الواضح الكئيب ، بأن الأثرةَ قوامُ الحياة ، وبأن الأبناء يحيون لأنفسهم قبل أن يحيوا لآبائهم ، وبأن السعادة تغرى بالقسوة وتدفع إلى الأثرة وتصرفُ القلوبَ فى أكثر الأحيان عن البر والرحمة والحنان !

لم أسىء إلى أسرتى باللفظ ، ولم أسىء إليها بالعمل ، وما

أراها تعتد على بظاهر من التقصير أو الإهمال ، ولكنى مع ذلك أسأت إليها فأسرفت ، وآلمتها فغلوت ؛ انصرفت عنها بحياتى ، وأظهرتُ لها ذلك مئات من المرات فى نبرات الصوت ، وفى حركات الجسم ، وفى لحظات الطرف ، وفى الإبطاء حين كان يحسن الإسراع ، وفى الإسراع حين كان يحسن الإبطاء ، وفى الفتور حين كان يجب النشاط ، وفى النشاط حين كانت تستحب الأناة ؛ فى هذه الأشياء اليسيرة التى تحس وتلحظ ولكنها لا تكاد تثبت للتصوير والتعبير ، هى أيسر من ذلك وأدق ، هى تنفذ من أعماق النفوس ، لا تكاد تمر على الألسنة ولا تكاد تستقر فى العقول ، ولا فى مظاهر الحس والشعور ؛ وهى من أجل ذلك مؤذية مهلكة شديدة الخطر على الحب والود ، وعلى ما بين الناس من صلات ؛ هى أشبه شىء بهذه الجراثيم التى كانت تفتك بحياة الناس ، وتذيع فيهم ألوان الوباء والموت دون أن يحس لها الناس وجوداً ، أو يستطيعوا منها احتياطاً ؛ ولكن العلم قد كشف هذه الجراثيم وأخذ يعلم الناس كيف يعرفونها ، وكيف يدرسونها ، وكيف يتقونها ؛ فمتى يستكشف العلم هذه الجراثيم المعنوية التى تفسد الود ، وتفتك بالحب ، وتقطع أمتن

ما يكون بين الناس من صلات ؟ لا يشتدّ وجدُك على ولومك لى ، أيها الصديق العزيز ، فإنى لم أختصك بالخيانة ، ولم أوثرك بالغدر ، وإنما أشركت معك فى الخيانة والغدر قوماً آخرين لهم على أكثرُ مما لك علىّ من الحق ، وهم بعد ذلك يشعرون أكثر مما تشعر ، ويألمون أكثر مما تألم ، ويشقون بعقوق الأبناء أكثر مما تشقى بتقصير الصديق .

لقد أحببت أبوىّ حبا ما كنت أعرف له حداً ولا أمداً ، ثم لم يمنعنى ذلك من أن أقصر في ذاتهما ، ومن أن أوذيهما بالإهمال والإعراض حين أتيحت لى السعادة واستأثر بى الحب؛ ولقد عاهدتك على الود الدائم والوفاء المقيم ، ثم لم يمنعنى ذلك من أن أعرض عنك وأنساك حين أتيحت لى السعادة واستأثر بى الحبّ . أو من الحق إذن أن الحبّ يقاس بالحاجة ، وأنى إنما أحببت أبوىّ لأنى كنت محتاجة إليهما ، متصلةً بهما ، مدينة لهما بكل شىء ؛ فلما جاءتنى السعادة من مصدر غير مصدرهما ، ولما أحسستُ الحاجة إلى شخص غيرهما ، تحوّل عنهما حبى وقصر فى ذاتهما قلبى ؟

أفكنت محبة لك لأنى كنت محتاجةً إليك ، أبثك همى وأتخفف

إليك مما كان يثقلنى من الآلام والأحزان ، فلما صرفت عنى الهموم ورفعت عنى الآلام والأحزان لم أحتج إليك ، فلم أحفل بك ولم أفكر فيك ، وتركتك فى مكانك هذا الذى استقررت فيه أكثر من ثلاثة أعوام ؟ يوشك أن يكون هذا حقا ، وهو مؤلم وهو مخجل ! ولكن، مالى لا أتشجع ،ومالى لا أواجه الحق، ومالى لا أسجل على نفسى هذا الاعتراف بالخزى ؟ ما الذي حمانى على أن أفكر فيك وأخرجك من عزلتك الطويلة وأشقّ عليك بهذا الحديث الطويل الثقيل ؟ وما الذى حملنى على أن أكتب إلى أبوىّ منذ ساعة كتاباً طويلاً يفيض رقةً وحبا وحناناً، ويطلب إليهما إما أن يزورانى وإما أن يأذنا بزيارتى لهما ؟ ما هذا الحنان المفاجىء الذى يدفع بى إلى أحضان أبوىّ ؟ وما هذا الوفاء الذى يدفع بى إلى استئناف ما بينك وبينى من صلات الود ؟ هو الأثرة ، والأثرة وحدها . هو الأثرة التى تظهر فى مظهر الضعف والعجز والحاجة إلى التسلية والعزاء . لقد صرفتنى عنك وعن أبوىّ الأثرة التى كانت تظهرها السعادة قوية طاغية باغيةً عنيفة ، ولقد ردتنى إليك وإلى أبوىّ الأثرة التى تظهرنى ضعيفةً عاجزة يائسة أشدّ اليأس ، شقيةً أشدّ الشقاء !

لقد جرى القلم إذن بما لم أكن أحبّ أن يجرى به ، ولقد سجلتُ على نفسى إذن ما كنت أكره أن أسجله وما منعت نفسى من تسجيله منذ أسابيع ؛ لقد اعترفت بأنى ضعيفة ، وبأنى عاجزة ، وبأنى بائسة شقية .

ولقد آثرتك أنت بهذا الاعتراف ، ولم أوثر أبوىّ منه بشىء ، لأنك أقدر على احتمال الشكوى ، ولأنك أحفظ للسر وأملك للعزاء ، ولم أحتج إليك فى يوم من الأيام كما أحتاج إليك الآن أيها الصديق ! إليك وحدك أستطيع أن أشكو ، وعليك وحدك أستطيع أن أعول ، سأصدقك لأنك تحتمل الصدق ، وسأكذب على أبوىّ لأن الصدق يقتلهما لو سمعاه .

أترى إليهما وقد ضحيا فى تربيتى وتنشئتى بما ضحيا ، واحتملا فى سبيل سعادتى ما احتملا ، وسعدا حين ظنا أنهما قد أتاحا لى هذه السعادة وتعزّيا بذلك عن كثير من آلامهما ؛ بل تعزّيا بذلك عن هذه الآلام التى صبها عليهما ما كان من التفريق بيننا !

أترى إليهما وهما يألمان لهذا الفراق ويشقيان بعزلتهما ويستلذان الألم ويستعذبان الشقاء لأنهما يظنانني سعيدة ؟

أترى إليهما لو عرفا أنى شقية بائسة، وأنى قد استنفدت حظى من السعادة فى عام وبعض عام ، ثم أخذت هذه السعادة تكدر شيئاً فشيئاً و يمازجها البؤس قليلا قليلاً ، ثم أخذت تضؤل وتهون وتمحى ، حتى صارت حياتى كلها ألماً وشقاء ؟ أترى إليهما لو عرفا هذا كله ، أيثبتان له ؟ أيتعزيان عنه ؟ أيصبران عليه ؟ كلاهما أضعف من ذلك . لقد قسوت عليهما حين كنت سعيدة ، فلأرقن لهما ، ولأرفقن بهما حين استقبلتُ الشقاء .

أما أنت أيها الصديق العزيز فقد خلقت لغير هذا ، خلقت لتحتمل قسوتى عليك بالشكاة والأنين ، حين أشقى وأبتئس ؛ وقد أخذتَ بحظك من قسوتى عليك أثناء السعادة والنعيم ، فأما حظك من قسوتى عليك بالشكاة والأنين فسيتصل ما اتصلت بك وبى الحياة .

١١

الآن نستطيع أن نتحدث فى يسر وإسماح ، أيها الصديق العزيز ، فقد عدنا إلى البيئة الهادئة الحلوة التى نشأت فيها مودتنا هادئة منذ أعوام ، حين تحدثتُ إليك لأول مرة بما كان يساور نفسى من اضطراب غامض عميق ، فوجدت فى الحديث إليك لذةً وراحة وأمناً ودَعة .

عدنا إلى هذه الغرفة التى عرفتْ صباى ، وعرفت شبابى ، والتى رأتنى أنشأ وأتغير وأستقبل الحياة وما فيها من لذة وألم ، والتى رأيتها آناً ثابتةً باقية ، وإن تغير ما يختلف عليها من الصور ، وما ينتظم فيها من الأداة والأثاث ؛ عدنا إلى هذه الغرفة الصديقة التى نشأت بينها وبينى مودة قديمة ، لا أكاد أذكر متى ابتدأت ولا أكاد أعرف متى تنتهى ، ولا أشك فى أنى قد نسيت أشياء كثيرة أثناء الغيبة ، ولكنى لم أنسها ولم أنس مكانى أو أمكنتى منها ، وإنما كنت أرى نفسى فيها مضطربة وساكنة ، عاملةً ومطمئنة إلى الكسل ، مفكرة ومسترسلة فى الأحلام ، مستيقظةً

ونائمة ، آويةً إليها بما كان يملأ نفسى من الابتهاج حيناً والابتئاس حيناً آخر ، مرسلةً نفسى على سجيتها حين كانت تبتهج وتبتئس ، فمستمتعةً بأقصى حظى من حريتى فى الفرح والحزن وفى الأمل والقنوط .

عدنا إلى هذه الغرفة التى تعارفنا فيها ، ولو أنك تمثلت لى الآن شخصاً لضممتك إلىّ ولمنحتك قبلة تصور فرحى بلقائك فى هذا المكان الأمين الوفى ، أشبه بهذه القبل التى أمنحها لأعضاء الأسرة حين ألقاهم فى هذه الدار ، بعد أن تطول الغيبة ويبعد الأمد ويشتدّ الشوق .

لست أدرى أتفهم عنى ؟ بل لست أدرى أيفهم الناس عنى إن تحدثت إليهم بأنى أجد فى القبلة التى أتلقاها من أمى وأبى ، وأضع فى القبلة التى أمنحها لأبى وأمى فى هذه الدار ، حرارة لا أجدها ولا أضعها فيما أتلقى منهما وما أمنحهما من القبل فى مكان آخر ؟ إن نفوسنا لغريبة الأطوار ، وإنها لشديدة التأثر بما يكتنفها من الظروف وما يحيط بها من الزمان والمكان !

لقد حاولت منذ أيام أن أتحدث إليك بدخيلة نفسى ، وأن أفضى إليك بهذه الآلام التى أخذتُ أحسها منذ حين ، وبهذا

الشقاء الذى أخذ يسعى إلى شيئاً فشيئاً ، فلم أجد من نفسى نشاطاً لذلك ، ولا قدرة عليه ، وإنما جعلت أدور حوله ولا أتعمقه، كأن شيئاً كان يصدنى عنه صدا ويصرفنى عنه صرفاً ، وكأن هذا الشيء لم يكن إلا تلك البيئة التى كنا فيها ، فإنها لم تكن بيئة شكاة وتبسط فى الإفضاء بالسر والتخفف من الحياء. كنت أنظر إلى غرفتى تلك فأشعر أنى طارئة عليها لا ناشئة فيها ، فأستحى منها وأستحى مما فيها من الأدوات والأثاث أن تظهر على مكنون سرى أو دخيلة أمرى ، لأنى كنت أراها غريبة لم تظفر منى بعد بهذه الثقة التى تبيح إذاعة السر والإفضاء بدخائل النفوس . ومع ذلك فقد ظهرت تلك الغرفة على كثير من أسرار نفسى ودخائل أمرى ، حين كنت أسعد بالحب ، وأنعم بتلك الحياة الرائعة فى غير تحفظ ولا تحرج ولا احتياط ؛ لقد ائتمنتها على حبى وسعادتى ، وأظهرتها على فرحى ومرحى واغتباطى بالحياة؛ ولكنى لا أخفى عليك : كنت أحس شيئاً من الحياء دائماً ، مهما خرجت بى السعادة عن طور الوقار والأناة ، ولا أخفى عليك أنى لم أنس بعد ما أحسست من الألم اللاذع حين تمنيت شيئاً فلم أظفر به ولم أقدر عليه : فقد كنت أحب أن أعرف

زوجى وأواجه حبى فى هذه الغرفة التى عرفتْ صباى وشبابى ، والتى ألفتنى وألفتها ، لا فى تلك الغرفة الغريبة من ذلك الفندق الغريب فى مدينة البندقية ، ولا فى تلك الغرفة الغريبة من تلك الدار الغريبة التى أقمت فيها مع زوجى فى المدينة ؛ ولكن ذاك لم يتح لى ، لأن تقاليد الناس وأوضاعهم تريد أن يتعارف الزوجان فى الغربة ، وأن تبتدئ سعادة الحياة الزوجية فى أماكن ليست بينها وبينهما صلات أو عهود ؛ ولست أخفى عليك أيضاً أنى لم أستطع أن أبثك حزنى وألمى فى تلك الغرفة من دار زوجى ، لأنها قد عرفتنى سعيدة مغتبطة فلم تعرف من نفسى إلا هذه الناحية ، ووجدت المشقة كل المشقة والجهد كل الجهد فى أن أظهرها من نفسى على الناحية الحزينة المبتئسة ؛ بخلت بها على ذلك ، وبخلت بذلك عليها ؛ آثرتها بمظاهر السعادة والغبطة ، وآثرت نفسى بحقائق الحزن والشقاء .

ما أشدّ ما أخدع نفسى وأعبث بها ! وهل حياتنا إلا خداع وعبث ؟ لقد رأتنى تلك الغرفة سعيدةً ناعمة البال ، ولكنها رأتنى مؤرقة مفرّقة النفس ؛ رأتنى كئيباً ورأت دموعى تنهلّ ، وسمعتنى أمانع صوتى أن يجهش بالبكاء ، ورأتنى أكظم الغيظ

وأحبس الغضب فى نفسى أن ينفجر ، وأردّ نفسى بالعنف عن الثورة العنيفة ، وأكرهها على الصبر والاحتمال ، وأكلف ثغرى الابتسام ووجهى الإشراق ، وإن قلبى ليدمى وإنّ فى نفسى لكلوماً لا تؤسى ؛ وأرفع رأسى عزيزاً أبيّا ، وإن فى نفسى لذلة وانكساراً ؛ وأنا مع ذلك أزعم أنى قد أخفيت على تلك الغرفة أسرار حزنى وشقائى ، لا لشىء إلا لأنى لم أتحدث بهذه الأسرار جهرة ، ولم أصورها فى الألفاظ والجمل ، كأن تلك الغرفة فى حاجة إلى الألفاظ والجمل لتعرف هذا الشقاء الذى نشأ فيها منذ حين يسيراً ضئيلا ، ثم أخذ ينمو ويتسع حتى كاد يستأثر بها استئثاراً .

إنّ نفسى لغريبة الأطوار ، وإنى لأجد بينها وبين نفوس الأطفال شبهاً قويّا ؛ فأنا كالأطفال أفيض الحياة على الأشياء الجامدة من حولى ، وأشيع فيها العقل والحس والشعور ، ويخيل إلى أنها ترانى وتلحظنى وتسمع منى وتفهم عنى ؛ ثم أتحدث إليها وأنتظر منها رجعَ الحديث كما يتحدث الأطفال إلى لعبهم ، وكما ينتظرون منها رجع الحديث .

وماذا أصنع الآن ؟ إنما أفيض عليك أيها الدفتر العزيز حياة ،

وأشيعُ فيك حسّا وعقلا وشعوراً ، وأشكو إليك وأنتظر منك العزاء ، لا أتكلف ذلك تكلفَ الأديب ، ولكنى أجدُ فى ذلك جد الطفل ؛ ذلك لأنى ضعيفة عاجزة وحيدة ، لا أستطيع أن أتحدّث إلى الناس بما أتحدث به إليك؛ لأن الذين انتظر منهم المعونة والعزاء لا يحتملون هذا الحديث ، ولا يقدرون لى على شىء ، بل لا يقدرون لأنفسهم على شىء ؛ ولأنى فقدت الثقة بغيرهم من الناس ، وكيف أستطيع أن أثق بالغريب وقد وجدتُ الخيانة من القريب ؟ وكيف أستطيع أن أشكو إلى هذا الصديق أو ذاك وأنتظر منه تعزية أو تسلية أو نصحاً أو إخلاصاً وقد التمست النصح والإخلاص عند أحب الناس إلىّ وأكرمهم علىّ ، وعند أشدّ الناس لى حبّا وأعظمهم لى إيثاراً ، فلم أجد منه إلا خيانة وغدراً ؟

لك الله أيها الزوج العزيز التعس ، لو تعلم إلى أى حد انتهى بك الإثم ، وإلى أى طور أخرجك النزق ! لو تعلم أنك قتلت نفساً وسحقت قلباً ومزقت ضميراً ! لو ينفذ هذا الشعور إلى نفسك ، لو يستقر هذا الخاطر فى عقلك ، إذن لكنت أشقى الناس ، وأضيقهم بالحياة ، وأزهدهم فيما تضطرب فيه من لذة

وما تتهالك عليه من نعيم ! لقد وثقتُ بك ثقةَ الطفل بأمّه ، ولقد أمنتُ إليك كما يأمن الطفل إلى أمّه ، فأضعت تلك الثقة وأزلت هذا الأمن ، ووطئت بقدميك نفساً أنت تحبها وتؤثرها ، وعرضت للشقاء والبؤس شخصاً هو أكرم عليك من نفسك ، وسعادته آثر عندك من سعادتك ؛ ولكنك غافل لا تدرى ! لقد هممت منذ أيام أن أرد عنك هذه الغفلة ، وأذودَ عنك هذا الجهل ، وأزيل عن بصيرتك الغطاء ، وأظهرك على هذا القلب الذى تدميه ، وعلى هذا الضمير الذى تؤذيه ، وعلى هذه النفس التى تمزقها تمزيقاً ؛ ولكنى لم أجرؤ لأنى أحبك وأعلم أنك تحبنى ، وأخشىَ أن تكون المصارحة بما بينك وبينى من هذا السوء خطراً على هذا الحب الذى أريد أن أحوطه وأصونه وأحميه من الموت! لقد هممت بهذه المصارحة فى تلك الليلة التى جعلتَ تناقش فيها صديقك فيليب فيما ينبغى من احترام الأوضاع الاجتماعية . لقد كنت لبقاً قوىّ الحجة فى ذلك الجدال ، ولكن صديقك قد أفحمك واضطرك إلى الصمت ، واضطرنى أنا إلى أن أترك غرفة الاستقبال حيناً لأكظم حزناً كاد ينفجر ، وأكفكف دموعاً كادت تنهل ، وأستعير من الصبر والجلد وقوة الإرادة وجهاً مشرقاً

يمكن إظهاره لأضيافنا . كنت تقول لصديقك إن الخير فى ألا يستطيع أحد أن يباديك من أمرك بما يخجلك . فأجابك : خير من ذلك ألاّ تبادى أنت نفسك بما يخجلها ! فصدمتك هذه الجملة واضطرب لها لسانك ، واحمرّ لها وجهك شيئاً ، واضطررت أنا إلى أن أتحوّل عنكما حتى لا يظهر من أمرى مثل ما ظهر من أمرك .

أنت إذن عاجز عن أن تبلغ بنفسك هذا الطور ، وأنت إذن تعرف من أمر نفسك ما لا تستطيع أن تباديها به لأنه يخجلها ؛ فلو عرفتَ أنّ غيرك يستطيع أن يباديها بهذا المخجل ، ولو عرفت أنى أستطيع أن أقصّ عليك قصتك كلها مع صديقتنا لورنس ، فماذا أنت صانع ؟

١٢

ربما كان ابننا هذا العزيز البرىء مصدر هذه الآلام التى تملأ قلبى ، وهذا الشقاء الذى يغمر نفسى ، وهذا اليأس الذى أحاول أن أخفيه فلا أكاد أظفر من ذلك بما أريد إلاّ مع الجهد العنيف الذى احتملته إلى الآن ، والذى لا أدرى أأستطيع أن أمضى فى احتماله والصبر عليه . وكم يؤذينى ويضنينى ويمزق نفسى البائسة أن أقرنَ ابنى هذا العزيز البرىء إلى ما أحسّ من ألم ، وما أجدُ من شقاء ، وما أتعرض له من يأس ، على حين أنه قرة عينى ، ونعمة بالى ، ومصدر سعادتى ، والقيمةُ لحياتى منذ عرفت نفسى إلى أن عرفته ، والغايةُ الصحيحة لحياتى منذ عرفته إلى الوقت الذى لا أقدر له فيه على شىء ؛ ولكن الشجاعة إنما هى مواجهة الحق كما هو ، والاعتراف بالواقع كما وقع ؛ وأمورُ الحياة كلها متناقضة على هذا النحو : فيها الخير والشر ، وفيها النعيم والبؤس ، وعنها تصدر السعادة ويصدر الشقاء ؛ فلو أنى خيرتُ بين ابنى هذا العزيز البرىء وبين أى لون من ألوان

السعادة لما تردّدت فى الاختيار ؛ فهو حياتى ، بل هو آثر إلىّ من حياتى ، ولكنه مع هذا كله كان مصدر ما أحسّ من ألم وما أجد من شقاء !

كنت قبل مقدمه فارغةً لزوجى مشغولة به مصروفة إليه ، موقوفة الجهد على حبه وإمتاعه بهذا الحب ؛ وكان هو قبل مقدم الصبى يحبنى كما تعود الأزواج العشاق أن يحبوا نساءهم ، يمنحنى خلاصة نفسه وصفوة ضميره ، ولكنه لا يمنحنى نفسه كلها ولا ضميره كله كما كنت أمنحه نفسى كلها وضميرى كله ؛ كان يصرف عنى بين حين وحين إلى أعمال الحياة وأعراضها ، وإلى أسباب العيش وشواغله . ومن الحق أنه كان يضطرب فى هذا كله مفكراً فىّ ، محبا لى ، مؤثراً لى بخير ما يستطيع أن يؤثرنى به من الحب والإخلاص ، ولكنه كان على كل حال يضطرب فى الحياة ويعنى بأعراضها وأسبابها ويصرف عنى بعضَ الشىء فى أثناء ذلك . ولم أكن أفكر إلا فيه ، ولم أكن أعيش إلا له ، بل لم أكن أعيش إلا به ، فكان حبى يحوطه ، وكان حبى يغمره ، وكان حبى يأخذ عليه كل سبيل ، وكان حبى يشتد حتى يثقل عليه أحياناً ؛ وكنت أحسّ هذا

وآلم له وألوم نفسى عليه ، وأرفه على صديق فأعفيه من بعض ما كان يدفعنى إليه الحب الجامح من الكلف والهيام، ومن البر والحنان ؛ ولكن ابننا ، هذا العزيز البرىء ، أقبل ذات يوم فسعدنا بمقدمه وما زلنا سعيدين، ونعمنا بتنشئته وما زلنا ناعمين؛ ونشأتْ بيننا صلة جديدة هو قوامها ، وشغلت أنا بهذا الصبى شيئاً ، وأصبحتْ لى فى الحياة غاية جديدة لم تكن لى من قبل. والله يشهد ما أضعفتْ هذه الغايةُ من حبى ، ولا خففت من وجدى ، ولا صرفت قلبى عن زوجى قليلا ولا كثيراً ؛ فإن لقلوب النساء سعةً لا تعرفها قلوب الرجال ؛ فهى تستطيع أن تحب الولد إلى أقصى غاية الحب ، وأن تحب الزوج إلى أقصى غاية الحب ؛ وهى تستطيع أن تجمع بين هذين النوعين من الحب ، وأن تلائم بينهما ، وأن تخلص فيهما دون تهاون أو تقصير .

هى أوسع من الزمان ، وهى أوسع من المكان ، وهى أوسع من هذه الجهود المادية التى يبذلها الناس فى الزمان والمكان ، هى تسع حب الزوج وحب الولد ، ولكن الزمان لا يستطيع أن يسعهما فى حيز واحد ، أو نحن لا نستطيع أن نؤدى حقوق

الزوج ولا حقوق الولد معاً ، فى لحظة واحدة ، وفى حيز واحد ، وفى جهد واحد .

فنحن إذا فرغنا للصبى وعنينا به صرفنا عن الزوج ، ونحن إذا فرغنا للزوج وعنينا به صرفنا عن الولد ؛ والرجال أثرون لا يحتملون التقصير ، ولا يصبرون على التفريط ؛ وهم بعد هذا قلقون لا يرضون عن شىء ، ولا يطمئنون إلى شىء ؛ وهم بعد هذا وذاك جشعون ليس لهم حظ من قناعة ، فمهما نعطهم فنحن دون ما يطالبون . وكذلك أخذتُ من الوقت الذى كنت أفرغ فيه لزجى ما منحته للصبى ، ولم يضق زوجى بذلك فى ظاهر الأمر ولا خفيه ، وإنما رآه حقا وملائماً لطبيعة الأشياء ، وملائماً كذلك لما كان يملأ قلبه من حب للصبى ، ولكنه على كل حال قد وجد من الوقت فراغاً لم أكن أشغله ، ووجد حرية لم يكن يجدها ، واستطاع أن يخلو إلى نفسه وأن يتصرّف فى وقته ، وأن يشغل بغيرى حين كنت أنا أشغل بالصبى . وكذلك هيئت له أسباب لم تكن مهيأة له من قبل ، وكذلك أحسّ فراغاً فأراد أن يملأه ، وكذلك انتهت به الحياة شيئاً فشيئاً إلى ما لم يكن يريد ، وإلى ما لم أكن أقدّر أنه سينتهى إليه .

وكانت لورنس إلفاً لنا، قد رُفع بينها وبيننا الحجاب، وزالت بينها وبيننا الكلفة، تزورنا فى كل وقت ونزورها فى كل لحظة، ونلتقى على العلات لا نضرب للقاء موعداً ولا نهيئ له أسبابا؛ كانت فارغة مثرية، وكانت جميلة رائعة الجمال، ردت الحربُ إليها زوجها مريضاً قد أثقلته العلة، وقامت على تمريضه والعناية به جادة فى ذلك كل الجد، مخلصة له كل الإخلاص، ولكن العلة كانت أقوى من جدها، وأنفذ من إخلاصها، فقضى ذلك الشاب المسكين شهيداً من شهداء الحرب، وما أكثر هؤلاء الشهداء الذين عادوا إلى أوطانهم يحملون الموت فى ناحية من حياتهم، يجاهدونه ويجاهدهم، فقليل منهم يطول به الجهاد فيحيا حياة قد استأثر الموتُ بأعظمها، وكثير منهم يصرعون فيفارقون هذه الدنيا وفى نفوسهم من الآلام والحسرات ما لا سبيل إلى وصفه، آلام الأمل الذى ينقطع وقد كان خليقاً أن يتصل، وآلام الرجاء الذى ينبت وقد كان حريا أن يدوم، وحسرات الشهيد الذى كان خليقاً أن يتجرع لذة الشهادة وشرفها فى ميدان القتال فإذا هو يموت فى فراشه حزيناً كئيباً بعد أن صارع الموت ألف مرة ومرة.

احتملتْ لورنس خطبها جلدةً ،وصبرت عليه عزيزة النفس عميقة الحزن ، وصرفت عن الحياة ولذاتها أعواماً ، ولكن فى شيء مؤثر حقا من الاحتفاظ بالكرامة ، والاعتداد بالنفس، وادخار الحزن لخلوتها حين لا ترى أحداً ولا يراها أحد ؛ وكنا نجد ذلك منها فنعجب به ونعجب له ، ونرفق بها أشد الرفق ، ونكبرها أعظم الإكبار ، ونصرف ما نبذل من جهد لنصرفها عن هذه الخلوة التى كان الحزن ينتظرها فيها ؛ ومن هنا كثر اتصالنا بها واشتد اتصالها بنا ، فقلما كان يمضى يوم لا أراها فيه مصبحةً وممسية، وقلما كنا نخرج لرياضة لا تشاركنا فيها؛ كانت ثالثتنا إن خرجنا منفردين ،وكانت واحدةً منا إن خرجنا فى جمع من الأصحاب والأصدقاء .

وما خطرَ لى قط وما خطرَ لها وما خطرَ لمكسيم أن هذا الصفو الجميل يمكن أن تشوبه شائبة ، أو تعدوَ عليه عادة ، أو يكدره خاطر سوء ؛ ومع ذلك فقد كان جمالها خليقاً أن يفتن ويروع ، ولكنها كانت واثقة بنفسها ؛ مشغولة بحزنها لا تتعزى عنه إلا فى ظاهر الأمر ؛ وكان مكسيم واثقاً بنفسه مشغولا بحبه وأعماله، منصرفاً إليهما عن كل شيء وعن كل إنسان ؛ وكنت أنا

مطمئنة إلى الصداقة والحب ، حتى تكشفتْ لى الأيام عما تكشفت عنه ، وإذا الحياة كلها غرور ، وإذا الضعف الإنسانى أقوى من كل عاطفة — إن صح أن يُوصف الضعف بالقوة — فهو الذى يسيطر على حياتنا ويدبر أمورنا ويسخرنا لغرائزنا ويصرفنا كما يريد لا كما نريد .

ولا بد من أن أصدقك الحديث ، أيها الصديق العزيز ، ومن أن أصور لك الأمر كما كان ، ومن أن أشهد بين يديك بأن صديقنا لورنس قد وفتْ لنفسها ووفتْ لزوجها الشهيد ، ووفتْ لحزنها المتصل ولصديقها الوفيّة ، فلم تشارك فى إثم ولم تغر به ولم تدعُ إليه ، وإنما اضطرت إلى المقاومة ، وإلى المقاومة الطويلة المتصلة ؛ وكانت البائسة تجاهد الحزن والثكل ، فاضطرت إلى أن تجاهد هذا الحب الذى طرأ عليها فأفسد أمرها ونغّص حياتها تنغيصاً . لا ألوم أحداً ولا أتجنى على أحد ، فإن أمور الحب لا تخضع للإرادة ولا يستطيع العقل أن ينظمها ويدبرها ، وإنما هى خطوب تطرأ فيستجيب لها من يستجيب ، ويعنو لها من يعنو ، ويمتنع عليها من يمتنع ؛ ويختلف ذلك باختلاف طبائع الناس وحظوظهم من القوة والضعف ، ومن الشدة على نفوسهم واللين لها .

وما أرتاب فى أن مكسيم قد كان طاهر القلب صافى النفس فيما كان بينه وبين صديقتنا من صلة أولَ الأمر ، ولكن إعجابنا وعطفنا عليها قد أخذا فيما أظن يتحوّلان قليلاً قليلاً فى نفسه إلى شىء من الحنان كان يجد راحةً إليه وكان يمعن فيه شيئا فشيئاً ؛ وقد كان ارتفاعُ الحجاب وزوال الكلفة وما كنا فيه من حياة بسيطة يسيرة طلقة ، خليقاً أن يضاعف هذا الحنان ، وأن ينحرف به شيئاً عن طريقه الأولى إلى طريق أخرى . وما أرتاب من أن مكسيم قد أنكر ذلك حين أحسه ، وقد جدّ فى مقاومته ، ولكن غرائز نفسه كانت أقوي من عقله ، وظروف الحياة كانت أدعى له إلى الضعف وأحري أن تورّطه فيه .

فهأنا هذه أصرف عن زوجى بعضَ الشىء بالحمل وأعراضه ، ثم بمقدم الصبى وتنشئته ؛ والزيارات بيننا وبين لورنس متصلة ، تسعى إلينا إذا لم نسعَ إليها ؛ وما أكثر ما حال ثقل الحمل وعنايتى بالصبى بينى وبين الخروج للرياضة ، وما أكثر ما كنت ألح على زوجى وصديقى فى أن يخرجا منفردين ، ومع الأصحاب والأصدقاء ؛ وما أكثر ما كانت تزورنا لورنس فأصرف عنها إلى بعض شأنى ، أو يضطرنى المرض إلى الانفراد فى غرفتى ، ويتاح

لها من لقاء مكسيم والحديث إليه منفرداً ما لم يكن يتاح لها من قبل ؛ وما خطر لى قط أنّ ذلك قد يتعرض لريبة ، أو يدعو إلى شبهة ، أو يثير بين الصديقين عاطفة سوء ؛ وما لاحظتُ قط فى حياة مكسيم أو حياة لورنس شيئاً جديداً يدعو إلى التفكير ، أو يثير فى نفسى من سوء الظن قليلا أو كثيراً ، ولكنى صُدمت ، بذلك فجأةً وعلى غير تقدير ، وما أدرى كيف احتملت الصدمة ، وما أدرى كيف ثبت لها ، وما أدرى كيف أخفيت آثارها فى نفسى على الناس جميعاً وعلى مكسيم قبل الناس جميعاً ؟

لا تسخر منى ، أيها الدفتر العزيز ، حين أثنى على نفسى ، وحين أحمدُ هذه الشجاعةَ النادرة التى تلقيتُ بها هذا الخطب العظيم ؛ فقد تلقيت النبأ فانحطم له قلبى ، واندكت له آمالى كلها ، ومع ذلك لم أظهر من هذا شيئاً ؛ تلقيت النبأ وكان ابنى هذا العزيز البرىء ، هو الذى حمله إلىّ فى بعض عبثه ؛ ولست أدرى كيف انسل إلى مكتب أبيه ، ولست أدرى كيف خلص إلى بعض ما كان فيه من أوراق ، ولست أدرى كيف استخلص منها هذا الكتاب الذى حمله إلى فرحاً مبتهجاً ، وظافراً منتصراً ، كأنه الجندى يحمل بعض الأسلاب إلى قائده مبتهجاً فخوراً !


بيكار

١٣

تلقيتُ الكتاب من يد بيير مبتسمةً مشفقة ، مبتسمةً لعبث الصبي ومرحه ودُعابته ، ومشفقةً أن يكون لهذه الصحف التى يحملها إلىّ بعضُ الخطر ، وأن يكون قد أفسد النظام فى مكتب أبيه ، وهو حريص أشد الحرص على أن يكون النظام فى مكتبه دقيقاً ، وعلى أن تترك الأشياء فيه كما وضعها هو ، لا يحول منها شىء عن موضعه ، يغلو فى هذا الحرص حتى يوشك أن يكون علة من علل نفسه ، وحتى يؤذيه أن يدخل أحد مكتبه فى غيبته أو يمس منه شيئاً ؛ ولقد هممت غيرَ مرة أن أرتب له مكتبه على نحو كنت أراه ملائماً جميلا ، فردنى عن ذلك رداً لم يخلُ من عنف ، ولعله ترك فى نفسى آثاراً لم أكن أحبها ، حتى انتهى الأمر بيننا إلى اتفاق صامت على أن كل ما فى البيت طوعُ يدى ورهن أمرى ، أناله بما شئت من تغيير وتبديل ، إلاّ هذه الغرفة ، فإنها حرام ما ينبغى لى أن أمسها أو أن أغير من نظامها شيئاً ؛ فلما وقعت فى يدى هذه الصحف تلقيتها مشفقةً مذعورة ، ثم

نظرتُ فيها فرأيت ، ويا هولَ ما رأيت ؛ وكنت خايقة أن أفقد الصواب ، وأن أخرج عن طور الرشد ؛ وكنت خليقة أن أجد الدوار وأن أسفح الدمع ، وكنت خليقة أن أتعرض لأزمة من هذه الأزمات العنيفة الحادة التي تتعرض لها المرأة حين تهان فى حبها ، وحين تخيب آمالها ، وحين تظهر لها الخيانة ماثلة وقد كانت ترى نفسها بمأمن من الشك والريب ، ولكنى رأيت بعض جمل الكتاب فقرأته مستقصية ، ونهضت بعد قراءته هادئة النفس مستقرة القلب ، فسعيت إلى مكتب زوجى ، ورأيت درجاً من أدراجه قد فتح شيئاً ، فعرفت أن يد الصبى قد امتدّت إليه ؛ فأخرجت ما كان فيه من أوراق ونثرتها فى أرض الغرفة نثراً ، ثم صنعتُ بغيره هذا الصنع ، ثم ألقيتُ الكتاب الذى حمله الصبى إلىّ بين هذه الأوراق المنثورة ، ثم خرجت فأغلقت الغرفة وأخذت مفتاحها ، ثم أويت إلى غرفتى وأغلقت بابها من دونى ، ثم انتظرت الأزمة ولكنها لم تأت ، ثم دعوت الأزمة ولكنها لم تستجب ، وإنما انحدرت من عينى دموع يسيرة جدا لم ألبث أن جففتها ، وظللتُ فى غرفتى هادئةً واجمةً بعضَ الشيء ، محزونةً أشدّ الحزن وأمضّه ، عاجزةً كل العجز عن

أن أجد من هياج الأعصاب أو انهمال الدمع ما يخفف وطأة هذا الحزن على هذا القلب الكسير ؛ فلما استيأست من ذلك نهضت متثاقلة ، وخرجت من الغرفة فلقيت الصبىّ فى بعض عبثه ، فأخذت بيده وهبطت به إلى الحديقة ، وجعلت ألاعبه وأداعبه ؛ وأقبل مكسيم بعد ساعة ، فتلقيته ساخطة صاخبة ألومه أعنف اللوم ، لأنه يحرص على النظام فى مكتبه ، ثم لا يحتاط لهذا النظام فيترك بابه مفتوحاً ، ويعرّض مكتبه بذلك لعبث الخادم ، ولعبث هذا الصبى العفريت خاصة .

ثم أزعمُ له أنّ الصبى قد انسل إلى مكتبه ، فأحدث فيه فساداً عظيما ، وأنه سيجد مشقة فى رده إلى ما يحب ويألف من النظام ، وهو خليق بهذه المشقة ، فلعلها تعلمه أن يأخذ مفتاح مكتبه معه منذ اليوم ؛ ثم أدفع إليه مفتاحه ، فيتلقاه هادئاً مبتسما ، ويرفع الصبىّ بين ذراعيه مبتهجاً ، فيقبله ويهنئه ، أو يهنىء نفسه بهذا الطور الجديد من حياة ابنه الذى أصبح قادراً على أن ينسل إلى الغرف ويفسد ما فيها من نظام ؛ ثم يصعد متثاقلا إلى مكتبه فيلقى عليه نظرة ، ثم يعود مغرقاً فى ضحك

متصل وهو يقول : إن إصلاح هذا الفساد أطولُ من أن آخذَ فيه قبل الغداء .

ثم تمضى أمور الدار على ما تعودتْ أن تمضى عليه ، كأن لم يحدث شيء ؛ ولكنّ فى الدار قلباً محطماً قد ذاق خيبة الأمل وعرف مرارة اليأس ، ولن يبرأ من هذه العلة التى مزقته تمزيقاً !

١٤

ولكنى لم أحدثك بشىء من هذا الكتاب ، أيها الدفتر العزيز .
وما أشد أسفى لأنى لم أحفظه عن ظهر قلب ، أو لم أتخذ منه
نسخة أعاود النظر فيها بين حين وحين ؛ فهو خليق أن يحفظ وأن
يسجل ، لأنه يصوّر الضعف والقوة معا ، كأقصى ما يكون
الضعف وكأقصى ما تكون القوة ؛ ولأنه يصور الوفاء للصديق
والاستسلامَ للحب ، والصراعَ العنيف بين هذا الاستسلام
وذلك الوفاء ، والانتهاء إلى اليأس من المقاومة ، والفرارَ آخر الأمر
إلى حيث يمكن الانفرادُ مع الحزن اللاذع والألم الممض ،
وإلى حيث يمكن الانتظار لروح الله الذى قد يريح من آلام
الحياة بما يفيض من السلوى والعزاء ، وقد يريح من الحياة نفسها
إذا لم تكن سبيلٌ إلى السلوى والعزاء !

كل هذا كان مصوراً فى ذلك الكتاب تصويراً يسيراً ساذجاً
لا تصنعَ فيه ولا تكلف ، حتى لقد كان يخيل إلىّ أنّ هذه
الصديق المسكينةَ إنما أفاضت فيه نفسها البائسة ، وأودعته قلبها

الكئيب ؛ وكانت لورنس قد ودّعتنا منذ أيام وزعمتْ لنا أنها مسافرة إلى باريس لتنفق فيها أسابيع ، ثم عائدةٌ إلينا بعد ذلك وقد جددت العهدَ بالعاصمة وما فيها ومن فيها ، مما تحبّ من المعالم ، ومن تألف من الأصدقاء ؛ وكنت قد أنكرتُ هذا السفر وضقت به ، ورأيت أنها تقدمُ عليه فى غير إبانه ، ولكنى رأيت منها إلحاحاً فيه وتصمما عليه، ولم أجد إلى صرفها عنه سبيلاً ، فودّعتها كارهة ، واستكتبتها وجعلت أنتظر كتبها دون أن أتلقى منها شيئاً ، حتى قرأت هذا الكتاب فعرفت منه أنها لم ترحل إلى باريس ، وإنما خدعتنا عن نفسها وعبرتْ البحر إلى حيث لا ندرى من الشرق الأدنى ، أو من الشرق البعيد ، وأنها لن تعودِ إلاّ حين تستيقن بقدرتها على العودة ، وعلى أن تعيش معنا كما كانت تعيش منذ حين ، نقيةَ القلب والنفس والضمير ، قادرةً على الوفاء لصديقها بما ينبغى من الود الخالص الذى لا إثم فيه ولا ريب .

وجدتُ فى هذا الكتابْ قصة نفسين قد لقيتا من قوة الإرادة وضعف الغريزة أشد العذاب . وكانت نفس لورنس أقواهما وأمضاهما وأشدهما احتمالا وأقدرَهما على المقاومة ؛ فهى قد

أحستْ عطف مكسيم عليها ورعايته لها ، ثم أحست تحول هذا العطف والرعاية إلى شيء من الحب والحنان ، ثم أحست قوة هذا الحب وشدة هذا الحنان ؛ فتلقتْ هذا كله لقاء حسناً نقياً . ولكن حب مكسيم ألح عليها وجعل يتتبعها ويقفو آثارها ، ثم جعل يمسها مساً رفيقاً ، ثم جعل يحيط بها ويغمرها ، وهى تقاومه وتدافعه وتحاول النجاة منه كما يحاول الغريق أن ينجوَ من الماء الذى يطغى عليه ؛ وقد نجحت مقاومتها مرة ومرة ، وأفلتت من شباك الحب تلك التى كان ينصبها لها مكسيم ، وكانت تنصبها هى لنفسها ؛ ولكن مكسيم غلا فى الإلحاح ، وأسرف فى التتبع ، وظهر من أمرها على ما كانت تخفى ، واستيقن أنها تلقى حبه بحب مثله ، وأنّ نقاء الضمير وحده هو الذى يحول بينها وبين الاستجابة له والانقياد لهواه ، فاضطهدها مصبحاً ، واضطهدها ممسياً ، واضطهدها حين كانت تزورنا ، وجعل يزورها حين كانت تقعد عن زيارتنا وتنتحل لذلك ما كانت تنتحل من معاذير ؛ وكانت المسكينة ترى هذا الإلحاح العنيف وتجد فى نفسها إلحاحاً مثله ، وكانت ترى مكسيم يدفع إليها دفعاً وترى نفسها تدفع إليه دفعاً ؛ ولكنّ صورتين اثنتين كانتا

تنتظرانها دائماً عند الهوة فتردانها عنها وتعصمانها من السقوط .

فأما إحدى هاتين الصورتين فكانت مخيفة منذرة ، تبعث الخوف وترسل النذير فى صمت مزعج رهيب ، وهى صورة زوجها الفقيد الشهيد الذى وفى لها فى حياته ، وشقى بالدفاع عنها أثناء الحرب ومات فى سبيل هذا الدفاع ؛ وأما الصورة الأخرى فكانت مشجعة فى حزن ، ومتوسلة فى ابتسام ، وهى صورة صديقتها مدلين ، تحمل بين يديها ابنها بيير ، تبسم له ويبسم لها ، وتنظر إلى مكسيم نظرةً فيها تساؤل واستغراب !

كانت المسكينة كلما بلغت الهوة وأوشكت أن تسقط بين ذراعى مكسيم رأت هاتين الصورتين تكتنفانها فارتدت فزعة مذعورة ، ثم كانت المسكينة تخلو إلى نفسها بعد ذلك فتلقى من الحب العنيف ومن الوفاء العنيف ، تلقى من الغرائز الضعيفة والإرادة القوية ، عذاباً ينغص عليها الحياة تنغيصاً ، حتى أنكرت نفسها وأشفقت أن يلم بها طارق من جنون .

هنالك لم تر المسكينة بداً من أن تفر منا جميعاً إلى حيث لا ترى هذا الحب الآثم الذى لا تكاد تفلت منه ، وإلى حيث لا ترى هذا الزوج الشهيد مخوفاً منذراً ، وإلى حيث لا ترى هذه

الصديق الوفية باسمة منكرة متسائلة ، وبين ذراعيها طفلها هذا الوادع البرىء .

«إن فى الرحلة إلى الشرق، والنظر إلى ما فيه ومن فيه لعزاء عن مثل هذا الحزن الملح والألم المقيم والعذاب المتصل ، إن كانت إلى العزاء عن ذلك سبيل . فإن لم أجد العزاء فسأجد من بعد الشقة بينك وبينى أيها الحبيب البغيض ، ما يعصمك ويعصمنى من هذا الخزى الذى إن كنت تطيقه الآن فستضيق به غداً ، والذى لا أستطيع أن أرى نفسى متورطةً فيه !

« وداعاً أيها الحبيب إلىّ وإن كنت أبغض حبك وأضيق به !

« وداعاً أيتها الصديق البائسة الأمينة ؛ لن أراكما ولن أرى طفلكما حتى استيقن بأنى أصبحت لرؤيتكم أهلاً !

« وداعاً ! إن كان فى الحياة ما يعزينى ويسلينى فهو أنى هممت بالإثم ولم أتورط فيه ، وكدتُ أخونك يا مدلين ولكنى آثرت اتصال العذاب والحرمان والغربة على أن أنظر إليك فأستحى منك ، وعلى أن يكون فى قلبى شىء لا تستطيعين أن تظهرى عليه ! »

بذلك ختمت المسكينة كتابها ، وقد استقرتْ كلماتها هذه فى

نفسى كأنما نقشت فى قلبى نقشاً :

أين أنت الآن يا لورنس ؟ كم أحب أن ألقاك وأن أضمك إلىّ ، وأن نمزج دموعنا التى تصور ما يملأ نفسينا من اليأس والحب والوفاء معاً !

١٥

، أقبل الصبي فرحاً كالمرتاع ، يكلِّف ساقيه الضعيفتين من العدو فوق ما تطيقان ، ويدير فى فمه الصغير لساناً لا يكاد ينطق بهذه الألفاظ : «أمّاه أماه ! انظرى هذه السيارة . » ولم أستطع أن أقاومه ولا أن أمتنع عليه ، حين أخذتْ يده الصغيرة بيدى الكبيرة تجرنى إلى حيث أرى ما كان يريد أن يظهرنى عليه . ولو استطعت لأعرضت عنه وعن سيارته التى كان يريد أن يظهرنى عليها ، ولمضيتُ فيما كنت فيه من القراءة ، لأنى كنت مشغوفة بما كنت أقرأ ، ولأن ألفاظه وقعت من نفسى موقع النذير ؛ فقد عرفت السيارة حين ذكرها وعرفت من فيها ، فلما رأيتها ورأيت من كان فيها لم أزدد علماً ، ولم أعرف جديداً .

وما من شك فى أن قلبى قد خفق لألفاظ الصبىّ ، ولكن الشىء الذى هو موضع الشك والريب والتردد الشديد ، هو تفسير هذه الخفقات التى اضطرب بها قلبى ، أكانت خفقات بالرضا والغبطة ، أم كانت خفقات بالغضب والضيق ؟ فقد كانت

السيارة سيارتنا ، وكان الذى يقودها مكسيم ، وكان فراقنا قد طال أمده شيئاً ، وإن لم تنقطع بيننا الرسائل ، ولم يعرف منى حين ودعته ولا حين كنت أكتب إليه أنى كنت مغاضبةً له أو واجدةً عليه ؛ ولكنى فى حقيقة الأمر كنت غاضبة بل أكثر من غاضبة ، وكنت واجدة بل أكثر من واجدة ؛ كنت محطمة القلب خائبة الأمل ، ملتاعة النفس محزونة الضمير ؛ وكنت أدافع نفسى أشد الدفاع عن مصارحة زوجى بهذا كله أو بعضه ؛ أريد أن أثأر للكرامة التى أهينت ، والحرمة التى انتهكت ، والحب الذى أضيع ؛ وأخشى إن فعلت أن يكون الفساد الذى لا سبيل إلى إصلاحه ، والصدع الذى لا سبيل إلى رأبه . ثم طال هذا التردد ، وطال حتى تغلب العقل ، أو تغلبت العاطفة ، أو اتفق العقل والعاطفة ، فأغمضت عينى على القذى ، وطويت قلبى على ألمه ، واحتفظت لنفسى ولك أيها الدفتر العزيز بهذا السر الأليم ، فلم يعلم زوجى أنى قد ظهرتُ على أمره وأنى تأثرت منه بقليل أو كثير . وفى سبيل الحب ما تكلفت فى ذلك من عناء ، وفى سبيل الحب أيضاً ما أرقت فى ذلك من ليل طويل ، أعنف نفسى أشد التعنيف وأصفها بالجبن مرة

وبالضعة والذلة مرة أخرى .

فى سبيل الحب هذا كله ، فإن هذه المحنة القاسية لم تتكشف لى إلا عن شىء واحد ، وهو أنى أحب مكسيم إلى أبعد ما يمكن أن ينتهى إليه الحب ، وأحتمل فى سبيله أقسى ما يمكن أن تحتمل المرأة من مشقة وجهد وتضحية ؛ ظهرت على خيانته فلم أحس ثورة جامحة وإنما أحسست ألماً لاذعاً ، وتبينت إثمه فلم تتحدث إلىّ نفسى بالقطيعة وإنما تحدثت إلىّ بالفرار إلى حيث أستريح واستجم ، ثم أستأنف الجهاد لاكتساب هذا القلب الذى أخذ يفلت منى ويهيم بغيرى .

وكنت أثناء هذه الأسابيع التى خلوت فيها إلى أبوى ، وإليك أيها الدفتر العزيز ، أغالب الشوق إلى مكسيم فأغلبه حيناً ، ويغلبنى حيناً ؛ وأغالب الغضب على مكسيم فيقهرنى حيناً وأقهره حيناً . ولولا أنى وجدت منهما ، ومنك ، ومن القراءة ، ومن هذه الطبيعة المشرقة الباسمة المتألقة ، ما كان يشغلنى عن نفسى ويصرفنى عما كان يتنازعنى من العواطف والأهواء — لانتهى بى الأمر إلى ما لا أحب ؛ ولكنى تمالكت حتى كان هذا اليوم الذى أقبل فيه الصبى ينبئنى بمقدم السيارة ، فأحسست

هذا التردد بين الابتهاج والابتئاس ، وبين الرضا والسخط ؛ ثم نهضت مع الصبى فماشيته إلى حيث أراد ، وإلى حيث ألقى نفسه بين ذراعى أبيه وقد أخرجه الفرح عن طوره ، وإلى حيث استقبلتُ أنا مكسيم بابتسام فاتر ، ونشاط متكلف . وشهد الله لقد تصنعتُ هذا الفتور وتعلمت هذا التكلف ، ولو أرسلت نفسى على سجيتها وأطعت غريزتى لألقيت نفسى بين ذراعى زوجى ضاحكة باكية ، ومغرقة فى الحزن والفرح معاً ؛ ولكنى تكلفتُ الأناةَ والوقار ونجحت فيما تكلفت ، فأرسلتُ إلى نفس مكسيم شيئاً من الفتور وخيبة الأمل .

قبلته متثاقلة فقبلنى متثاقلا ، واتصلتْ بيننا لحظات صامتة لم نعرفْ فيها كيف نقول ، ثم قطع الصمت بصوت متهدج مضطرب وهو يقول فى ألفاظ متقطعة شيئاً : لقد كنت أظن أن مقدمى سيشيع فى نفسك من السرور أكثرَ مما رأيت !

فلم أعرف كيف أجيبه ، ولكننى انحنيت إليه فقبلته فى رفق وقلت له فى حنان : هلمّ نسلمْ على أبوىّ فإنهما من غير شك قد أحسا مقدمك ؟

١٦

ولم يطل مقام مكسيم فى بيت أبوىّ ، ولم أستطع أن أتخلف عنه ؛ لأنى خشيت إن فعلتُ أن يظهر أبواى على أنّ بيننا شيئاً ؛ وكنت أكره ما أكون لإظهارهما على هذه الكارثة . ولعلى لا أصدق إن زعمت أن هذا وحده هو الذى منعنى من التخلف عن مكسيم ؛ وما تعودت أن أكذبك أيها الدفتر العزيز ؛ ولا أن أستحى منك ، فلأقلْ الحق ، ولأسجلْ مستخذيةً منك ، ومن نفسى ، أنى رجعت مع مكسيم ، مستسلمة لحبه مذعنةً لسلطانه ، عائدةً إلى طاعته متجافيةً عن خيانته ، وإن كنتُ لم أنسها ولم أعفُ عنها فى قرارة نفسى ، ولكنى اتخذت لها من قلبى زاوية أقررتها فيها ، وألقيت بينى وبينها ستاراً ، واستجبتُ لدُعاء الحب ، فألقيت نفسى فى ناره المضطربة ، ووجدت فى الاحتراق بهذا الجحيم نعيما أى نعيم ! وقد أنسى أشياء كثيرة قبل أن أنسى عودتنا إلى المدينة ، فى ضحى ذلك اليوم الذى أشرقت فيه الشمس ، وصفت فيه السماء ، ورقّ فيه الجو ، وخفّ

فيه الهواء ، وظهرت فيه الطبيعة هادئةً باسمة ، تستقبل حياةً هادئة باسمة ، وتغرى الناس بأن يأخذوا بحظوظهم من الهدوء والابتسام ؛ وقد استجبنا لهذا الدعاء ، وخضعنا لهذا الإغراء ، وظهر على وجهينا هدوء مطمئن ، وابتسام يصوّر الرضا ، وميل إلى الدعة ، واستسلام إلى الأمن ، وانصراف عن الجهد ؛ وقد أسلم مكسيم قياد السيارة إلى السائق ، وآثر السكون والهدوء ، وجلس إلى جانبى ينظر إلىّ فى وداعة وحنان ، وأنظر إليه فى رفق وعطف ، والصبى أمامنا منطلق فى أحاديث لا نفهم إلاّ أقلها ، قد انصرفنا عنه إلى أنفسنا ، وقد ألقيتُ رأسى على كتف مكسيم وجعلت أنعم بهذه الساعة الحلوة ، وإذا دموع تنحدر من عينىّ لا أدرى لماذا انحدرت ، فلم أكن فى حاجة إلى البكاء ، ولم أشعر بدافع إليه ، ولكن هذه الدموع انحدرت فى صمت ، ولم يسألنى عنها مكسيم ، وإنما مسحها فى رفق ، وضمنى إليه ضما خفيفاً ، ثم مال إلىّ فقبلنى فى هدوء ودعة ! لم يقل شيئاً ولم أقل شيئاً ، وإنما لبثت كما كنت ، وظلّ كما كان ، حتى أشرفت بنا السيارة على المدينة ، ونبهنا الصبى إلى مكاننا منها بما كان يدلنا عليه من المعالم والعمارات ، فاعتدلت فى مجلسى

واستقبلت المدينة والحياة فيها استقبال الجدّ والطمأنينة والإذعان.

ولقد استأنفتُ حياةً جديدة فيها حب شديد النشاط، وكلفٌ بعيد الأثر في النفس يوشك أن يكون هياماً، وفيها ترقبٌ لكل ما يصدر عن مكسيم من لفظ وحركة، وما يضطرب على وجهه من المظاهر؛ وفيها تفهمٌ لنبرات الصوت وخلجات العين. وما أكثر ما كنت ألوم نفسي على ذلك، وأحذّرها الإسراف في تتبع مكسيم، ومضايقته بهذا الحب الملحّ، وإغراقه بهذا السيل الجارف من العواطف؛ فقد يؤذيه ذلك، وقد يحرجه، وقد يغيظه، وقد يخرجه عن طوره؛ وكنت أنجح أحياناً فأخفف من هذا الإلحاح، وأقلل من هذا التتبع، وأظهر كأني معرضةً عنه بعض الإعراض؛ ولكنه كان يلحظ ذلك في سرعة وينبهني إليه في خفة، ويظهر الألم لإعراضي عنه والتبرم بتقصيري في ذاته، فأعود إلى أكثر مما كنت فيه من عناية ورعاية، ومن ترقب وتتبع؛ وينعم هو بهذا الحب الملحّ وبهذا السيل الجارف الذي يندفع؛ فلا يكاد يبقى على شيء؛ وكان يقول له إنه يجد اللذة كلّ اللذة والنعيم كل النعيم في أن يغمره هذا الحب حتى يغرقه، وأحب شيء إليه أن يؤذيه الحب، وأن يشقّ عليه، وأن يعذبه في

جسمه ونفسه . وكنت أسأل نفسى عن مصدر هذا الهيام الطارئ والشغف الجديد ، فلا أجد لسؤالى جواباً ؛ وربما عللتُ ذاك بما كان من افتراقنا أسابيع ، وربما أعدت على نفسى ما قرأت فى غير كتاب : إنّ من الخير للعاشقين أن يفترقا بين حين وحين ، ذلك أجدى على حبهما وأحرى أن يجدّد منه ما بلىَ ويُقوى منه ما ضعف . ولكننا لم نفترق لأول مرة ، وقد افترقنا فى العام الماضى والعام الذى قبله ، فلم نجد من الحب والكلف والهيام مثل ما نجد الآن .

أفّ للشيطان ! إنه لقريبٌ من الإنسان دائماً ، وإنه لنافذ البصيرة قوى الحجة بالغ الأثر فى النفوس ؛ ها هو ذا يدنو منى خفيفاً متلطفاً ، قبيحَ المنظر مع ذلك سمجَ المحضر ، ويقول فى غير صوت مسموع ، ولا لفظ مبين : « لا تعجلى بالرضا ، ولا تسرعى إلى الأمن ، ولا تنسىْ أنك مدينة بهذه النعمة لصديق غائبة تطوف فى الشرق القريب أو الشرق البعيد . اذكرى لورنس فهى التى سافرت فأخلت لك قلبَ زوجك الضعيف ، ولو أنها بقيت ، ولو أنها عادت ، لكان لك شأن غير هذا الشأن ، ولاضطربت فى قلبك عواطف غير العواطف التى تضطرب فيه ! »

ثم ينصرف الشيطان خفيفاً متلطفاً وقد ترك أمامى فى الهواء صورة لورنس يشيع فى وجهها ابتسامٌ غريب !

واحسرتاه ! أحقٌ هذا ؟ أحق أنى مدينة بهذه السعادة الطارئة لهذه الصديق الشقية ، التى تطوف فى الشرق القريب أو البعيد ؟

ليتنى أعرف أين هى ، ليتنى أستطيع أن أكتب إليها ، إذاً لتحدّيت هذا الشيطان ، ولدعوتها وألححت فى دعائها لأعلم أعاد مكسيم إلى حبى لأنه ما زال يحبنى ، أم عاد مكسيم إلى حبى ليتسلى به عن غيبة لورنس !

١٧

كذبَ الشيطانُ ، وصدقَ وحيُ الضمير . لستُ مدينة بهذا الحب المجدد لغيبة لورنس ، وإنما هن عواطف فترت وقتاً ثم استأنفت النشاط ،وإنما هو حبنا القديم قد عاد سيرته الأولى بعد أن اعترضته مصاعبُ لم تلبث أن أزيلت ، وعقابٌ لم تلبث أن ذللت ؛ وقد كانت لورنس إحدى هذه المصاعب والعقاب ، فقد ذهبت لورنس وخلا لى بذهابها وجه مكسيم ؛ وكانت طفولة الصبى إحدى هذه المصاعب والعقاب ، فقد نما الصبى وربّما وأصبح يستطيع أن يشغل نفسه من جهة ، وأصبحت أستطيع أن آمن عليه المربية والخادم من جهة أخرى ، واستردت كثيراً من الوقت والجهد اللذين كنت أنفقهما فى تنشئته والقيام عليه ، ورددتُ هذا الوقت والجهد إلى مكسيم صاحب الحق الطبيعى فيهما .

فرغتُ له وفرغ لى فاستأنفنا حياتنا كما كنا نحياها فى أول عهدنا بالزواج . ومالى أسأل نفسى عما عسى أن يكون لو عادت

لورنس ولا أسألها عما عسى أن يكون لو أتيح لى طفل آخر ؟ لقد كنتُ غافلةً ثم تنبهت ، وكنت جاهلةً ثم علمت ؛ فتستطيع لورنس أن تعود أو لا تعود ، فقد عرفت كيف أحوط زوجى وأحمى قلبه ، وأردّ عنه عاديات الحب من لورنس أو من غيرها . وما أشك فى أن نفسى راغبة أشد الرغبة فى ألاّ نقف عند هذا الصبىّ الوحيد ، وفى أن نمنحه أخاً أو أختاً ، ولكنى لست متعجلة ، وقد أستطيع أن أنعم بالفراغ لزوجى عاماً أو عامين وقد أتيح لنا من حسن الحال وسعة العيش ما يمكننا من أن نربى طفلنا الجديد ، إنِ أقبل ، على غير ما ربينا عليه أخاه ، فلا أمنحه وقتى كله وجهدى كله، ولا أنصرف إليه عن زوجى ، ولا أنصرف إليه عن حقى فى الحياة . فلأردّ عن نفسى كلّ هذه الخواطر المظلمة ، ولأستقبل الحياة راضيةً باسمة ، ولأنعمْ بما تحمل إلىّ من أسباب الأمن والنعيم ، ولأغلقْ دونَ الشيطان بابَ قلبى وسمعى ، فإنه لا يوسوس إلا بالشر ولا يلقى فى النفوس إلا اليأسَ والقنوط .

وقد فعلت ، فمضت أمورنا على خير ما كنت أحب وعلى أحسن ما كنت أتمنى وقتاً ما أدرى أطال أم قصر ، لولا أنى

أرجع إلى الذاكرة فأحصيه فإذا هو أشهر ، وأرجع إليك أنت أيها الدفتر العزيز ، فأرى آخرَ عهدى بالتحدث إليك ، فيصدق الإحصاء وأتبينُ أنى قد أعرضت عنك ستة أشهر كاملة ، لأنى لم أكن فيها محتاجة إليك ؛ وما حاجتى إليك وقد استأثر مكسيم بكل وقتى ، وكل نفسى ، وشغلنى عن كل شىء وعن كل إنسان ، ومنعنى حتى من أن أخلوَ إلى نفسى خلوةً متصلة فأفكر فيما أستقبل من الحياة . يا لله ! أيمكن أن ينحط الناس من هذه السعادة التى لا توصف إلى هذا الشقاء الذى لا يطاق ؟

ألم تحدث نفسك ، أيها الدفتر العزيز ، حين أحسستِ يدى وهى تأخذك وتقلب صفحاتك بأنى شقية بائسة ، وأنَّ الشقاء والبؤس هما اللذان ألجآنى إليك وذكرانى بمكانك من غرفتى ؟ كلا لم تحدث نفسك بشىء ، لأنك لم تحس شيئاً ، وأين أنت من النفس والحس؟ وإنما أنا التى تحدث نفسها بهذا كله ، ولا تستطيع أن تخلو بهذا كله إلى نفسها ، ولا أن تبثه أحداً غيرها ، فهى تلقيه إليك بعد أن تفيض عليك من الحياة ما يخيل إليها أنك شخص مثلها ، تسمع وتعقل ،

وتستطيع أن تمنحها السلو والعزاء ؛ وأىّ سلوّ وأىّ عزاء ؟ وعمّ أريد أن أسلوَ وعمّ أريد أن أتعزى ؟ وهل لا يزال لى فى شىء من ذلك أمل ؟ ما أدرى ؛ لقد وقفتُ عن الكتابة حين بلغت هذه الجملة من الحديث ، لأنى وقفت عن التفكير ، بل وقفت عن الشعور ، وأحسست كأن عارضاً من الذهول قد عرض لى ، وكأنّ كل شىء من حولى يضطرب أشد الاضطراب ، وكأن أصواتاً من حولى ترتفع فتملأ الجو وتفعم الفضاء . وما أدرى أبقيت على هذه الحال ساعةً أو دقائق ؟ ولكنى رجعت إلى نفسى متعبةً مكدودة ، لا أكاد أتمالك ، ثم أخذ الهدوء يثوب إلىّ شيئاً فشيئاً ، والقوةُ تعود إلىّ قليلاً قليلا ، وإذا أنا جالسة حيث كنت أنظر إليك ولا أكاد أراك . ثم أسأل نفسى عما أنا فيه ، أسألها عما كنت أفعل ، وعما عرض لى ، وعما أريد أن أفعل ، فلاأجد من نفسى إلا جواباً واحداً ، وهو أنى مقبلة على أشياء خطيرة وأمور ذات بال . . .

١٨

أتصدّقني أيها الدفتر العزيز ؟ أما أنا فلا أكاد أصدّق نفسي ، بل أنا لا أصدّقها ؟ وإنما أنا في ريب من أمري واختلاط ، لا أدري أعاقلةٌ أنا أم مجنونة ، أمحتفظةٌ أنا بملكاتي كلها كما عهدتها ثابتةً هادئةً منظمةً ، لا تقدمُ إلا على بصيرة ولا تدبر إلا عن رويّةٍ وتفكير ، بعيدة كل البعد عن هذه الأوهام التي تعبث بعقول الدهماء وتؤثر في نفوس الشذاذ من الناس ، ما أدري ، ولكني أنكر نفسي أشدّ الإنكار : منذ أيام تخطر لي الخواطر الغريبة فأذودها هازئة بها ، فتعاودني فأعاود ذيادَها ، ثم يتصل الليل بالنهار فإذا الخواطر التي كانت تعرض لي أثناء اليقظة تلحّ عليّ أثناء النوم ، وإذا أنا أفيق مذعورةً مرةً ومرتابةً مرة أخرى ؛ كل ذلك وأنا أتهم نفسي وأنكرها ، وألوم نفسي وأعنفها ، وأزعم أنّ الحب قد أخرجني عن طوري ، وأنّ الغيرة قد أفقدتني رشدي وأذهلتني عن صوابي . وربما تساءلت : أليس من الخير أن أعود إلى أبويّ

أقيم معهما أسابيع لأستريح من الحب كما عدتُ إليهما فأقمت معهما أسابيع لأستريح من الهجر ؟ وأكاد أرجح هذا الميل ، وأكاد أعزم على الرحلة ، وأكاد أفرّ من نفسى ، ولكنّ النذرَ تبلغنى فأقيم .

قلت لك إنك لن تصدقنى ، وإنى لا أصدق نفسى ولكنى لم أنبئك بهذه الأنباء التى أعتقد أنك سترفضها وتأبى أن تؤمن لها . لم أنبئك بهذه الأنباء لأنى أكبرها وأنكرها ، وأستحى أن أقصّها عليك ، ولأنى أجدُ كثيراً من المشقة والجهد فى جمع نفسى هذه المشردة وتأليف خواطرى هذه المتفرقة ، وصوْغ هذه الأنباء الغريبة فى جمل قريبة أستطيع أن ألقيها إليك ؛ ومع ذلك فلأجتهدْ ولأجاهدْ ، فما ينبغى أن أخفى عليك سرا ، وما ينبغى أن نفترق ولما أظهركَ على هذه الأحداث الجسام .

ما كنت أظن أن حرصى على حب مكسيم سينتهى بى إلى هذا الطور الذى انتهيت إليه منذ شهرين من الإشفاق والخوف ، ومن التطير والخضوع للأوهام .

ولكنى قد انتهيتُ إلى هذا الطور سواء أردتُ ذلك أم لم أرده ، وقد جعلت ألتمسُ التأويل والتعليل لكل كلمة من كلمات

زوجى ، ولكل نبرة من نبرات صوته ، ولكل حركة من حركاته ، ولكل هذه المظاهر التى تختلف على وجوه الناس حين يبتسمون ويعبسون ، وحين يهدأون ويضطربون ؛ وأسرفتُ فى ذلك حتى ضقتُ به ، وحتى جعلتُ أروض نفسى على أن أنفق الأوقات القصيرة غيرَ مفكرة فى مكسيم ولا حافلةً به ، فلا أبلغ من ذلك شيئاً ؛ وقد ألقى الشيطان فى روعى أنى مدينة لغيبةِ لورنس بنشاط حبنا بعد فتوره ، فأحاول أن أدفع وسوسة الشيطان هذه عن نفسى ، فأوفق حيناً ثم يعود إلىّ هذا الوسواس ملحا مسرفاً فى الإلحاح ، وإذا أنا أفكر فى لورنس كلما فكرت فى زوجى ؛ وأكاد أسأل نفسى ، كلما وقعتْ من نفسى أحاديثُ مكسيم وأعماله موقع الإعجاب والحب : ما عسى أن يكون موقع هذه الأحاديث والأعمال من نفس لورنس لو أنها شهدتها أو ظهرت عليها ؟ وإنى لضيقة باقتحام لورنس علينا حياتنا وقيامها بين زوجى وبينى فى كل لحظة ، وإذا صورة أخرى تقتحم علينا هذه الحياة وتقوم بيننا مع صورة لورنس ، وهى صورة زوجها الفقيد الشهيد ؛ فقد أخذت هذه الصورة تتراءى لى بين حين وحين ، وأخذتُ أنكر إلمامها بى وظهورها لى ، ولكنها أخذت

تكثر من الزيارة وتطيل المقام ، وأكبر الظن أنى أنا التى دعتْ هذه الصورة لكثرة ما فكرتُ فى لورنس ، ولكثرة ما أعجبت بوفائها لزوجها ، ولكثرة ما أعدتُ على نفسى كتابها الذى أنبأتْ فيه مكسيم بعزمها على الاغتراب .

ولكنى أفيق ذات ليلة مذعورةً أشدّ الذعر ، قد ملئ قلبى روعاً ، واستأثر الهلع بنفسى حتّى تصبّبَ جسمى كله عرقاً . . . وقد كان أول خاطر خطرَ لى حين انجلتْ عنى سحائب هذا الذعر أنها خواطر اليقظة قد ألحت علىّ فى النوم ؛ وقد جعلت أردّ الأمن إلى نفسى قليلا قليلا ، ولكنه لا يعود إلاّ ليزول ؛ فقد رأيت فيما يرى النائم صورة ذلك الزوج الفقيد تدعونى بالإشارة فأمتنع عليها ، فتلحّ فى الإشارة وألحّ فى الامتناع ، فتضيفُ الصوتَ إلى الإشارة ، فأسمع زوج لورنس يدعونى بصوت هادئ ولفظ واضح صريح : إلىّ ، إلىّ ، فإن مكانك ليس بين هذين الآثمين ولكنه إلى جانبى أنا المظلوم .

وأفيق مذعورةً لا أدرى أأيقظنى الذعر أم أيقظنى الصوت الذى سمعته ؟ وأحاول أن أخلص من هذه الصورة ، ولكنها تملأ عينى والغرفةُ مظلمة ؛ وأحاول أن أخلص من هذا الصوت ،

ولكنه يملأ أذنى والليلُ من حولى شديد الهدوء ؛ فأعمد إلى النور فأذود به الصورة ، ثم أنهض من سريرى ، وأضطرب فى غرفتى ، وأحدث من الحركات ما أذود به الصوت عن أذنى ، ولكنى لا أعود إلى الظلمة إلاّ عادت الصورة إلى عينى ، ولا أعود إلى السكون إلا عاد الصوت إلى أذنى ، حتى ظننتُ بنفسى الظنون وأشفقت على عقلى من أعراض الخبال ، ولم ينقذنى من هذه الآلام المتصلة والأخطار المحدقة إلاّ ضوء الصبح حين أقبل بعد انتظار طويل.

قلْ ، أيها الدفتر العزيز ، ما قلته لنفسى من أنّ هذا عرَض من أعراض المرض ، ومظهر من مظاهر ضعف الأعصاب واضطراب المزاج ، ونتيجة من نتائج التفكير المتصل فى حب مكسيم والإشفاق من لورنس . فقد قلتُ هذا كله لنفسى واستيقنته ، وفكرت فى أن أطبّ له بالرحلة إلى أبوىّ أو بالإبعاد فى السفر ؛ وما يمنعنى أن ألم بباريس فألهو بحياتها الصاخبة المتنوعة عن هذه الحياة الهادئة المتشابهة فى الأقاليم ؟

ولكن ما رأيك فى أنى لست مريضة ولا ضعيفة الأعصاب ولا مضطربة المزاج ؟ ما رأيك فى أن هذه الصورة لم تخدعنى ، وفى أن هذا الصوت لم يكذبنى ، وفى أن زوج لورنس قد أنبأنى

بالحق الذى لا شك فيه ؟ فقد عادت لورنس من سفرها البعيد، وتورطت فى الإثم الذى فرّت منه ولم تستطع أن تمضى فى المقاومة.

عادت لورنس، لا إلى هذه المدينة التى نقيم فيها ، ولكن إلى مدينة أخرى ليس بيننا وبينها إلا ساعتان فى القطار ؛ عادت لورنس واتصلت بمكسيم ، واتصلت الزيارات بينهما ، وكان ما خفتُ أن يكون .

أتصدّقنى أيها الدفتر العزيز ؟ إنى لا أصدّق نفسى ، وما تعودت من قبل أن أصدّق أحلام الليل ؛ ولكن لورنس قد عادت، ومكسيم قدعاد إليها ، ولكن قلب زوجى لم يعد خالصاً لى ، ولكن الأمر بين زوجى وبينى لم يقف عند هذا الحد ، فقد عرف الناس من أمره ما كنت أجهل ، ولم أعرف حقيقة هذا الأمر إلا بعد أن عرفه الناس ، وقد عرّضنى ما ظهر من أمره إلى أكثر من ألم المرأة التى يخونها زوجها : عرّضنى لطمع الطامعين ، وأغرى بى الذين ينتهزون الفرص من الأصدقاء الأوفياء؛ عرّضنى لألم المرأة التى تهان فى حبها ، ولخزى المرأة التى تهان فى كرامتها ؛ أأصدّق أحلام الليل أم أكذبها ؟ أأستجيب لهذه الدعوة التى وجهها إلىّ زوج لورنس أم أمتنع عليها ؟

١٩

« ما أشدّ شوقى أيتها الصديق العزيزة لورنس ، وددتُ لو استطعتُ أن أطير إليك لأضمك بين ذراعىّ ، ولأقبلك قبلات تنقل إلى قلبك بعض ما فى قلبى من حبّ ووفاء ، ومن إكبار وإجلال ، ومن شكر للصنيعة واعتراف بالجميل ، ولأذرفَ على كتفك دموعاً تصوّر الحزن لفراقك ، والفرحَ بلقائك ، والإكبار لتضحيتك ، والشكر لبعض فضلك ، والأسى لما احتملت من حرمان ، والإعجاب بما أظهرت من شجاعة وحسن احتمال ، وكنت خليقةً أن أفعل هذا كله لو أن نبأ عودتك إلى الوطن قد ألقى إلىّ ساذجاً يسيراً كما تلقى الأنباء ؛ فقد كنت مدينةً لك بحبى ، وكنت مدينة لك بسعادتى ، وكنت مدينة لك بحياتى ؛ وما أدرى أفهمتنى كما أنا أم لم تفهمينى ، ولكن المحقق أنى بعد أن أحببت مكسيم وبلوت السعادة بحبه ، لا أتصور الحياة بدون هذا الحب ولا أطيق لها احتمالا .

« ألعلك عرفت هذا كله وقدرته حين هاجرت من أرض

الوطن ، وضحيت بلذّاتك وآمالك ، وبعواطفك وشعورك؛ ضناً بى على اليأس ، وحرصاً على أن أتجنب آثاره الوبيلة وعواقبه المهلكة ؛ أم لعلك إنما هاجرت من أرض الوطن ضناً بنفسك على الإثم، وارتفاعاً بها عن النقيصة، وفراراً من الخيانة للأحياء والأموات ؛ هذه الخيانة التى لا تليق بالنفس الكريمة ، ولا تلائم القلبَ الذكىّ النقىّ ؛ أم لعلك قدّرت الأمرين جميعاً فنصحت لى ونصحت لنفسك ، وأبقيت على حياتى وأبقيت على كرامتك حين أزمعت ذلك الرحيل ! مهما يكن من شىء فإنك قد منحتنى الحياة مرةً ثانية حين تركت لى قلب مكسيم وحبه ، فأنا مدينة لك بهذه الحياة ، ولو قد اطلعت على قلبى من مهجرك ذلك البعيد لرأيت أنى كنت قد اتخذت لك فيه معبداً خاصاً أسميته معبد الوفاء ، ولعلمت أنى كلما أحسستُ لذّةً وغبطة أو سعادة أو ألماً أو حسرة — وما أكثرَ ما كنتُ أحسّ هذا كله — قدّمتُ إليك بعض ما كنت أجد قرباناً لوفائك وعرفاناً لجميلك وإيماناً بما لك علىّ من فضل ليس إلى وصفه ولا إلى تقديره من سبيل . ليت النبأ الذى حمل إلىّ عودتك إلى أرض الوطن ألقى إلى سمحاً سهلاً نقياً ، إذن لأسرعت إليك ولأدّيت بين يديك

بعض ما كان ينبغى أن أؤدى من الشكر والوفاء . ولكنى عرفت عودتك مصادفة ؛ وأى مصادفة ؟ إنى لأذكرها فتقف نفسى عن التفكير ، ويقف قلبى عن الشعور ، ويقف قلمى عن الكتابة ، وتنحدر من عينى دموع غزيرة حارّة ، ولكنها لا تخفف هذه النار المضطرمة بين جوانحى ، نارَ اليأس والحسرة وخيبة الأمل وكذب الظنون !

« هذا المعبد الذى كنت أقمته فى قلبى قد تهدّم ، وهذه الصورة الجميلة التى رسمتها لنفسك فى أعماق ضميرى قد درسها المسخ والتشويه واستحالت إلى صورة مخيفة بشعة تروعنى وتملأ نفسى هلعاً وجزعاً .

« ماذا ؟ أيستطيع الناس أن يرتفعوا من البر والطهر والنقاء إلى حيث ارتفعت يا لورنس ، ثم يهبطوا من الخزى والإثم والعقوق إلى حيث هبطت يا لورنس ؟ أشهد أن الإنسان مستقرُ المتناقضات ، وأنّ الشهوة أقوى من العقل ، وأن الشر أعظم على نفوس الناس سلطاناً من الخير ؛ أتعرفين كيف انتهى إلىّ نبأ عودتك ؟ فى حديث من هذه الأحاديث المألوفة التى تجرى بين الأصدقاء فى غير تكلف لها ولا احتفال بها . . .

« كنا نسمر فى بيتنا كما تعودنا أن نفعل مع جماعة من الأصدقاء الذين تعرفينهم ، وكنا نتجاذب الحوار فى موضوعات مختلفة كما تعودنا أن نفعل ، فانتهينا إلى الحب ، وانتهينا إلى الوفاء ، وأفضنا فى ذلك حتى عرض مكسيم لعادة تقرّها بعضُ الجماعات المتحضرة ، عادة تعدّد الزوجات .

« وإذا مكسيم يدافع عن هذه العادة دفاعاً حاراً ، ويذود عنها ذياداً عنيفاً ، ويزعم أن قلب الإنسان أوسعُ من أن يضيق بحبّ شخصين ، أو حبّ أشخاص . والأصدقاء من حولنا يجادلونه فى ذلك جدالاً عنيفاً ، وأنا أسمع ذلك ضاحكة منه أول الأمر ، ثم منكرة للغلو فيه ، ثم دهشة لهذه الحماسة التى يظهرها مكسيم ، ثم متنبهة لما كان يردّد به فيليب من ألفاظ لا تخلو من تلميح وتعريض .

« ثم نتفرق ، وقد وقر فى نفسى من هذا الحوار شىء لم يخل من تنغيص لما كان بينى وبين مكسيم من صفو ؛ وأكاد أنسى هذا الحوار وأعرض عنه بعد أيام ، ولكن فيليب الذى يتردد علينا ويكثر التردد ، والذى يتودد إلى ويسرف فى التودد ، يزورنى ذات يوم ، وقد عرف أن مكسيم غائب فى بعض أسفاره

القصيرة التى كثرت واتصلت فى هذه الأيام ، فنأخذ فى أطراف من الحديث ، وما أسرع ما يبلغ بحديثه نجوى الحبّ التى أرده عنها كلما ألم بها، ساخرة منه فى رفق ومودة، ولكنه فى هذه المرة لم يرتد ، ولم يثب إلى وقاره ورعاية ما كان يرعى من الحق ، وإنما تمرد واحتد وثار ثائره ، واندفع فى ألفاظ مختلطة عرفتُ منها بعد دقائق كل شىء .

« عرفتُ منها أن الرسائل اتصلت بينك وبين مكسيم بعد أن عجزت عن احتمال الفراق الطويل، وعرفتُ منها عودتك إلى فرنسا واستمرارك فى جرينوبل ، واستئناف الأمر بينك وبين زوجى ، وعرفتُ منها أمر هذه الأسفار القصيرة المتصلة التى كانت تدعو إليها الأعمال فيما كان ينبئنى ، والتى إنما كان يدعو إليها الحب وما استتبع من لهفة بعد طول الفراق ، ومن ظمأ بعد طول الحرمان !

« ولله قلبُ فيليب ، هذا الفتى البائس المسكين ، الذى ثاب إلى رشده بعد أن فضح السر وخان الأمانة وأظهرنى على ما كنت أجهل ؛ فقد تولى كئيباً يائساً مستخذياً ، ثم انقطعت عنى أخباره ، أما أنا فقد ثبت لهذه الصدمة كما ثبت لصدمة أخرى

تعرفينها ؛ فلم أثر ولم أجزع ، ولم أصل إلى الأزمة كما لم أصل إليها من قبل ، ولكنى لم أقاوم حب الاستطلاع ، بل لم أفكر فى المقاومة ، وإنما وازنتُ بين خيانة مكسيم لحبنا وبين ما سأقدم عليه حين أخونه فيما يحفظ من الرسائل ، وما هى إلا أن أقتنعَ بأن هذه الرسائل من حقى .

« ويقبل الليل ، وتهدأ الحركة ، وتستقر الأشياء ، وأذهب أنا إلى مكتب مكسيم ، فأنفق الليلَ فيه مع رسائلك يا لورنس ، على حين كان ينفق مكسيم ليله فى حبك فى غرفة من الغرفات فى مدينة جرينوبل ؛ ولست أدرى كيف أصف ما كنت أجد من شعور حين كنت أقرأ رسائلك الرائعة ، وحين كنت أتصور الخاتمة التى انتهى إليها هذا الجهاد المجيد ؛ ولكنه لم يكن شعور ثورة ولا غضب ، ولم يكن شعور سخط عليك أو لوم لك ، وإنما كان شعوراً حزيناً هادئاً مطمئناً ، وكان شعوراً حزيناً يائساً مصمماً مع ذلك ، وكان فيه كثير من الرحمة لك ، والاعتذار عنك ، والإشفاق على طفلنا هذا البائس التعس الذى لن يستقبل الحياة كما كنت أتمنى أن يستقبلها سعيداً بين أبوين سعيدين ؛ وأنا أكتب إليك الآن ، ولست أدرى لماذا أكتب

إليك ؛ ولكنى دُفعت إلى ذلك دفعاً .

« أكتب إليك وقد ارتفع الضحى ، وأظن مكسيم يوشك أن يودّعك ، فقد ينبغى أن يبلغنا نحو الساعة الثانية . وقد يصل إليك هذا الكتاب مساء اليوم ، أو صباح الغد ؛ فاقرئيه واذكرى كاتبته ، واعلمى أنها لا تضمر لك بغضاً ولا تحفظ لك موْجدة ، وإنما تسدى إليك الشكر ، وتهدى إليك التحية ، وتتمنى لك ما لم يتح لها من السعادة وما لم يقدرلها من النعيم ! »

٢٠

كلا ؛ لم أكن صادقة أيها الدفتر العزيز حين زعمت للورنس أنى لست ثائرةً ولا محنقة ؛ ففيمَ كتبتُ إليها هذا الكتاب ؟ ولم أرسلته فى غير تردد ودون أن أسأل نفسى عما يمكن أن يكون له من عاقبة ، وعما يمكن أن يحدث من أثر فى نفس هذه الصديق البائسة ، وفى نفس مكسيم الذى سيظهر على كل شىء ؟

لم أكن صادقة فيما زعمت ، وإن كنت صادقة فيما عملت ؛ فقد استجبت لغريزتى ، وأذعنتُ لعواطفى ، ولم أفكر ولم أرو ، ولو استطعت الآن لاسترجعتُ هذا الكتاب ، ولتركت هذين الآثمين البائسين ينعمان أو يشقيان بما قضى عليهما من إثم وبؤس ؛ وما عسى أن ينفعنى هذا الكتاب ؟ أتراه يرد إلىّ هذا الحب الضائع الذى لا سبيل إلى أن يعود ؟ واحسرتاه ! إنى لأفكر وأقدر كما يفكر الناس ويقدّرون برغم ما أشعر به فى أعماق نفسى من انقطاع الصلة بينى وبين الناس ، ومن أنى قد انتقلتُ إلى

عالم آخر يجب أن أفكر فيه على نحو جديد ، بل يجب أن أستريح فيه من التفكير . . .

ما أشدّ شوقى إليك أيتها الأم العزيزة ! ما أشدّ شوقى إليك أيها الأبُ الرحيم ! ما أشدّ شوقى إليك أيها الأخُ الكريم ! لقد كنتم أجدر الناس بلقائى وشفائى من هذا الذى أشقى به ولا أعرف كيف أسميه ، ولكنى لا أستطيع أن أسعى إليكم ، ولا أن أبلغكم ، ولا أن أحملكم من أثقالى أكثر مما احتملتم إلى الآن . . .

وأنت أيها الدفتر العزيز ، ما أشد صبرك علىّ ، واحتمالك لى ، ومواساتك لهذا القلب الكسير ؛ أترانى سأعرض عنك كما عودتُ الإعراضّ عنك ، ثم أعود إليك كما تعودّتُ العودة إليك ، مشغوفةً بك لاجئةً إليك مستخذيةً منك . . ؟ .

وداعاً على كل حال ! ومكسيم . . ؟ كلا ، ما ينبغى أن أفكر فى مكسيم . . . وأنت أيها الطفل العزيز ؟ كلا ، ما ينبغى أن أفكر فيك الآن ، وإن كنت لا أجد إلى الانصراف عنك سبيلا . . .

وأصبح الناس ذات يوم وقد قرأوا فى صُحف الإقليم نعى سيدتين أهدَتْ كل واحدة منهما إلى نفسها الموت ، أو أهدت نفسها إلى الموت ، وجعل الناسُ فى المدينة إذا لقى بعضهم بعضاً يلمون بهذا النبأ ويقول بعضهم لبعض : يا عجباً !... كأنما كانتا على ميعاد !

من مؤلفات الدكتور طه حسين باشا



دار المعارف لمصر

تقدم

لجمهور القراء ولجميع الأسر

مشروعاً حيوياً جديداً

فيه نهضة فكرية وفيه حياة راقية

مكتبات المنازل



٢ر٧٠٠ر٠٠٠
ثلاجة جنرال الكتريك تعمل
بنجاح منذ عشر سنوات تقريبا

جنرال الكتريك
U.S.A.

الموزعون المعتمدون للقطر المصرى

شركة إيسترن للكهرباء

٣٢ شارع عبد الخالق ثروت باشا ت ٧٨٠٦٠ بالقاهرة
وتباع لدى وكلائنا بجميع انحاء القطر

SPMO


S.P.M.O.
بيبسي كولا
QUALITY
PEPSI-COLA
QUANTITY
مشروب الضيافة

